حسن محسب

زمن الحبّ والغدر

مكتبة غريب

(١)

كانت الشمس فى وسط السماء تماما . كانت الرياح محملة بغبار الخماسين وكانت الرؤية ممكنة . . وكنت أغنى لها :

ـ « افرح حتى تنسى قلبك . وزد ما عندك من مسرات . ولا تدع قلبك يبتئس . . وافعل ما يحلو لك فى الأرض . . حتى يأتى يوم . . »

قاطعتنى « ديدى » بمودة حافلة بشتى العواطف :

ـ أين أنت الآن يا نن العين . . وحبة القلب . . ونور العقل . . ؟

قلت : إننى هنا . . « حيث شروقك جميل فى أفق السماء ، وحيث الأرض فى حبور كل يوم . . »

استدرت إليها . . نظرت إلى عينيها العسليتين اللامعتين ، بفرح حقيقى .

وقلت : أتعرفين . كانت أغاني الأجداد تدعو للمرح والحب .. رغم كل شيء . .

تنهدت « ديدى » بعمق ، وراحت تنظر إلى النهر الهادىء ، ورأت ذكور وإناث البط البرى الأبيض الصغير ، تهتز برشاقة فوق الأمواج ، ثم هتفت بابتهاج :

— الشمس تدفئنى . النيل يسحرنى . أشعر بأننى حبلى بولد مثلك . .

ثم وقفت ورقصت وصاحت : كأننى فى حلم . .

. . ازداد اهتزاز القارب ، فأجلستها بجوارى ... أسندت « ديدى » رأسها إلى كتفى .

. . لفحت أنفاسها عنقى . . أحسست بدفء لذيذ ، قبلت خصلات شعرها ، وحكيت لها أسطورة المصرية الجميلة «ازادورا» التى اعترض والدها على زواجها من حبيبها فصارت تضع له فى كل ليلة مصباحا على أسوار برجها ليهتدى به فى سباحته إليها عبر البحر ، وذات ليلة هبت العاصفة وأطفأت المصباح فضل فتاها طريقه وغرق ، فألقت بنفسها فى البحر وراءه . .

ثم سألتها : ما رأيك . . نقفز إلى الماء . .

طوقت « ديدى » عنقى بذراعيها ، وضمت رأسى إلى

صدرها . لامست شفتاى بداية نهديها . . سألتها : تخافين الغرق ..؟ قالت بثقة : حبك ينقذنى دائما . .

قلت وأنا أغوص بنظراتى فى عينيها :

ـ لم أكن أعرف ! . .

قالت : بل تعرف يا حسام ! . .

مرت لحظة ، ثم رأيت شفتيها الدسمتين تتحركان . . تهمسان :

ـ أحبك . . أحبك ! .

ألصقت شفتى الظامئتين بشفتيها . امتلأت أعماقنا بنشوة دافئة وتذكرنا زمالتنا الطويلة بمدرجات وملاعب الجامعة . . كم تناقشنا . . وكم اتفقنا .. وكم اختلفنا .. وبعد لحظة قلت لها : وأنا أيضا . . أحبك . . أحبك ! . .

وعدت أمسك بالمجدافين فانطلق القارب يشق صفحة النيل ، وأخذت « ديدى» ترقب الماء ، ثم أدارت ظهرها لمقدمة القارب ، وراحت تنظر إلى بشوق . كانت بملامحها سمرة محببة ، ولمسات فرعونية دقيقة وسألتنى بحب جارف :

ـ إلى أين هذه المرة ، يا نن عينى ، وحبة قلبى ، ونور عقلى . . ؟

قلت : إلى الأمام . دائما إلى الأمام . .

. . وضحكنا ، عبرنا أسفل الكوبرى . . حدقت فى قضبان الحديد الضخمة ، وقالت باندهاش :

– أتعرف . أول مرة أرى الكوبرى من أسفل . . !

وضحكت ، وغمست أصابعها فى الماء ، ونثرت الرذاذ على وجهى ، وضحكنا ملء قلبينا . .

قلت : رؤية الأشياء من كل الجهات متعة . . !

توقفت عن التجديف . . مددت ذراعى إليها ، انتقلت إلى جوارى . . أخذ القارب يتوقف . . يتوقف ، ثم اهتز بنا ، عندما مر الأتوبيس النهرى « آمون » وعاد يدور حول نفسه ببطء . . ثم أسلم نفسه للمياه المندفعة بانسياب شديد ، كان النيل يتسع أمامنا برحابة . . قلت :

– ظننت أننى لن أراك اليوم .

قالت : لو أنك تأخرت عاما كاملا ، لوجدتنى فى انتظارك .

وازداد نبضى ، أحسست بدمائى تندفع فى عروقى . قلت :

– تملئين قلبى فى كل مرة بزاد يكفى رحلة ألف عام ، كما أننى لم أعد أحتمل . .

ولفنا صمت يلتهب بالرغبة فى العناق والالتصاق إلى نهاية الدنيا . . تشابكت أيدينا . . تبادلنا ضغطات الأصابع ، ثم رفعت « ديدى » رأسها إلى أعلى . . حدقت فى السماء ، خدشت الشمس عينها فانهمرت دموعها . . وضحكت ، ثم غنت « يتخلل حبك جسدى » . . تصور . . !

ضغطت أصابعها بلهفة . « على إيقاع المجداف . . يسبح قاربى شمالا وعلى كتفى حزمة بوص . . سأذهب إلى منف . .

وأقول لرب الحق — بتاح . . . . أعطنى الليلة محبوبتى . . »

قالت « ديدى » : أغمض عينى كثيرا ، كلما اشتد حنينى إليك . .

وضحكت ، وهى تضيف . . زملائى يلاحظون و . .

قاطعتها متغاضيا : أغار منهم ، صدقينى .

عادت تضحك بعذوبة ، وقالت : وعيون زملائك تهشنى ! .

سألتها بدهشة : زملائى أنا . . ؟

قالت : ألم تقل لى أنك تريهم صورتى . . ؟

— إنهم طيبون . ليتك تكونين معنا لتسمعى حكاياتهم عن

الحبيبات وتعرف أشواقهم إلى الزوجات والأطفال ودفء البيوت.
قالت : لابد أن نتزوج . . لم أعد أحتمل ! . .

حاولت أن أقول شيئا ، شعرت بجفاف حلقى ، غرست أصابعى فى الماء ، حاولت أن أقبض على موجة ، تطاير الرذاذ وبللنى . . حاولت أن أشعل سيجارة . . أطفأ الهواء عود الثقاب مرتين . . صنعت لى بيدها « دروة » صغيرة كعش العصافير . . وأشعلت الثقاب مرة ثالثة . . تسلل الهواء بين أصابعها وأطفأه ، تركت السيجارة تسقط فى النيل ولم أفلت أصابعها . وأذهلتنى محاولتها ، وأردت أن أسألها كيف نفذت أصابعها عبر الجدار لابد أنها تعبت وهى تثقبه .

قلت : دائما تحاولين وحدك .

قالت : منذ عامين . . لم أعد وحدى .

قلت : إننى أعرفك من ألف ألف سنة .

قالت : كنت دائما معى . . بداخلى . . تؤنسنى . . تضاحكنى . . تعاندنى .. تروى الحكايات . . تسليني بمداعبات الأطفال .. وإذا بكيت منك ، كنت تغضب وتنهرنى .

قلت : الدموع تفسد عينيك .

قالت : لكننى سأبكى كثيرا إذا تركتنى ! .

حاولت أن أمسك بالمجدافين لأحول دون اصطدام القارب بأحجار المرفأ . . تأخرت ثانية واحدة ، فاهتز ، وعنفنى صاحب القارب بانزعاج شديد ، حاولت أن أعتذر للرجل لكنه لم يعطنى الفرصة ، وأخذ يندب حظه وينوح على قاربه الذى يأكل منه هو وعياله .

قالت له : « ثق أن القارب بخير »

نظر إليها الرجل مؤنبا ، متهما ، لكن عينيها جعلته يعتذر — فى سره — لها وانشغل بالاطمئنان على قاربه :

كانت الشمس تتأهب للرحيل . . خفت الحرارة قليلا . . كنا نقف متلاصقين ، وحيدين على الشط . . تعانقت أصابعنا . . سرنا خطوات . . عبرنا كميات من الحديد والأسمنت والتراب حول حفريات كوبرى رمسيس . . جلسنا على مقعد رخامى وأطللنا على النيل .

« فى معركة قادش » ، وجد رمسيس نفسه محصورا بين الأعداء ينوشونه من كل جانب ، فناجى ربه مستغيثا بدعائه : . أتذكرينه . . ؟

وتذكرنا رحلتنا الأسبوعية إلى دار الكتب ، دعاباتنا فى الرحلات الدراسية . . اشتراكنا فى حفلات السمر والتمثيل فى كلية الآداب :

أوفيليا : سيدى العزيز .. كيف كنتم فى الأيام العديدة الأخيرة ؟ .

هاملت : أ . . أعفيفة أنت . . أجميلة أنت . . ؟

أوفيليا : ماذا تعنى يا سيدى . . ؟

هاملت : . . أعنى إن كنت عفيفة وجميلة معا . . وجب على عفافك أن يجعل الوصول إلى جمالك محرما .

أوفيليا : يقينا يا سيدى . . لقد علمتنى ذلك .

هاملت : . . اذهبى وترهبى . . أين أبوك . . ؟

أوفيليا : فى البيت يا سيدى .

قلت فى غيظ : يجب أن أذهب إليه . . لكنه مخيف ! . .

قالت ديدى :

— حددوا موعد الزفاف الخميس القادم ! . .

أشعلت سيجارة وجذبت نفسا طويلا فى صمت .

سألتنى : أغاضب منى . . . ؟

قلت لها : بل من قسوة أبيك ! . .

وصمتنا وقتا طويلا . . طويلا .

عادت تقول : سأحاول مرة أخرى ، أم تراك تعبت .

قلت : أتعرفين . . فى الموقع ، حديقة خربة ، يملؤها التراب والحديد الصدىء . لكننى أمس رأيت غصنا فى شجرة مكسورة ينبت برعما صغيرا . . الحقيقة أن ذلك أدهشنا كلنا هناك . . احتفلنا بالبرعم احتفالا رائعا . . تبادلنا السجائر وأكواب الشاى واقتسمنا الطعام والحراسة طوال الليل والنهار ، وأنا أشعر بأن هذا البرعم سيتفتح عن وردة بيضاء لها مثل جمالك ، ودفئك ولمعان عينيك . بشرط أن يصبر والدك قليلا . .

ضغطت ذراعى بأصابعها ، وقالت : ما رأيك . . نذهب إليه الآن . . ؟

ــ أبوك يتاجر بك « يريد لك العريس الممتلىء بالنقود ! »

غضبت « ديدى » تعكرت عيناها ، تقلصت شفتاها . . ضغطتهما بأسنانها ، تعلقت أصابعها بعقدها الأزرق . . ولم أعتذر لها . . أخذت أحدق فى النيل أتابع موجاته المتتالية فى سباق لا يتوقف . اهتز البط الصغير . . طار بعضه ، هبط على النافورة العريضة ، ثم عادت تطير برشاقة إلى أشجار الجزيرة . . تذكرت طيور « النورس » التى قرأت عنها كثيرا . . تساءلت فى سرى « من الذى جعل طيور النيل داجنة . . »

بعد وقت استدرت إلى « ديدى » طوقت عنقها بذراعى ونهضنا ، سرنا خطوات ، صعدنا سلم « الحديقة الفرعونية » استندت إلى حجر يلمع ، تملؤه نقوش قديمة . . أخرجت قلمى وكتبت على الحجر :

« أحقا تخلى آمون عن ولده ؟ . . » انزلق سن القلم وترك نقشا بالحبر غير واضح ، فتحت حقيبة ديدى وأخذت قلم الحواجب وكررت به المحاولة ، لم يترك القلم أثرا . . أعدت المحاولة « بصباغ الروج » فضحكت « ديدى » وأمسكت رأسى بين راحتيها ونظرت إلى عينى ، وقالت :

— وعدتنى كثيرا أن تعالج المرارة .

قلت : القلب أيضا متعب .

قالت : لم لا تأخذ أجازة طويلة . . ؟

قلت : يكفينى يومان كل شهر لأراك . .

قالت : تصلك رسائلى . . ؟

قلت : بانتظام .

وعاد الصمت يحاصرنا ، سرنا متشابكى الأصابع . وهبطنا سلالم الجانب الآخر ، وصعدنا إلى أعلى البرج وجلسنا نحتسى الشاى ونرقب طالبا وطالبة يتبادلان النظرات والهمسات على

منضدة مجاورة . ابتسمنا وتذكرنا حبنا ورسائل الشوق فى «كشاكيل المحاضرات» .

سألتنى : تخاف منه يا حسام . . ؟

أطعمتها قطعة حلوى وقلت : ما زلت أجهل كيف أغزو . . رأس أبيك . . وأبى أيضا ! . .

قالت : أمى معنا . .

قلت : وأكيد أمى معنا هى الأخرى . . لكن . . لكن أباك ، جمجمته مليئة بمخلفات الدنيا ... وكذلك أبى ! . .

وضحكنا بمرح مبالغ فيه ، ونظرنا إلى القاهرة ، أدهشنا حجم المدينة وتلاصق بيوتها واختفاء شوارعها فى خطوط متداخلة كثيرة ، وسحابات الغبار تصنع غطاء ثقيلا باتساع الأفق . .

قالت : أول مرة أرى كل هذا . . . ترى أين بيتنا . . ؟

قلت : يمكن التخمين ، إذا رأينا من هنا سفوح جبل المقطم .

ضحكت وهى تقول : أتعرف . . ألح على أبى لينقلنا إلى وسط البلد ، لكنه ينهرنى ويقول أن حضن الجبل فيه الأمان .

قلت : رجل كهوف معتق مثل أبى !

وضحكنا ، ثم قالت : لا تظلمه هكذا . . إنه يريد أن يطمئن على مستقبلى قبل أن يودع الدنيا •

قلت : ليس كهلا إلى هذا الحد .

قالت : أتعرف أنه يضيق بي كلما اشتد حنينه إلى ولد . . هدد أمي بالطلاق في مرة . . لكن الطبيب أكد له أنه لا فائدة .

ــ آن له أن يرتاح .

ــ يخاف أن نموت جوعا إن هو رقد .

ــ لم لا يستأجر صبيا يعاونه في تجارته . .

ــ جرب كثيرا . . كانوا يغشون الزبائن .

ــ سأكون له ابنا وصديقا وشريكا إن صبر قليلا حتى أخرج من الجيش .

ــ لا يعرف متى تعود من السويس .

ــ ذات يوم . . أم تراك تشكين . . ؟

ــ عندما يغلبني اليأس . . أفكر في أحلامنا . .

ثم سألتني : هل استغنت عنك « المجلة » . . ؟

قلت : أواظب على رسالتي الأسبوعية . . لكنهم لا ينشرون إلا القليل .

. . لفنا الصمت طويلا . . تذكرت أبي وأحلامه الكبيرة ، وتفاخره بي بين الأهل والعشيرة ، وأمنية أمي بالزواج من ابنة أختها :

هبطنا من البرج ، عبرنا كوبرى قصر النيل ، سرنا فى الأنفاق كثيرا .

وضحكنا وصعدنا من النفق ، سرنا على رصيف الميدان .. تمهلنا كثيرا ، حدقنا فى إعلانات السينما ومساحيق الغسيل وأسطح العمارات وشرفاتها ، وتبادلنا ضغطه بيدينا المتشابكتين سرنا فى شارع « طلعت حرب » ودخلنا إحدى دور السينما ، وحاولنا الاستغراق — فى أحداث الفيلم لكننى تململت فجأة . كانت الشاشة مزدحمة بالهيبز والعنف والجنس قلت :

— نخرج .. ؟

وقامت معى فى صمت :

الشارع من جديد .. كانت الأضواء تلمع فى واجهة المحلات والبيوت .. عبرنا باشارة خضراء ، واستدرنا إلى الميدان المزدحم بالعربات حول تمثال « إبراهيم باشا » .. سألتها : « هل تحبين الارتباط به ؟ »

سألتنى : بمن .. ؟

— أبوك يعرف ثروته .. ؟

— أمى تعدنى أن تحاول مرة أخرى معه .

— أعرف أنها تخاف بطشه ..

— يتهمها بأنها تفسدنى كما أفسدت حياته بعقمها .

— أنه يغالط . . أليس كذلك ؟

— والطبيب أكد أنه ، وليست أمى . . السبب .

وصمتنا . . أخذنا نقرأ الإعلانات المعلقة حول أنقاض الأوبرا : « الملوك يدخلون التمرية . . غرام فى الطريق . . . شنبو فى المصيدة . . » وراقبنا عاملا يصعد ويلصق إعلانا عن « نجمة الفاتنة » . . فوق « كدابين الزفة » .

قلت : « ما رأيك . . سأذهب إليه . . سأضربه إذا لزم الأمر » . « حاولت نسيان اعتراض أبى وأمى » غمر الفرح أعمق أعماقها ، كادت ترقص فى الميدان ، وسط الناس والعربات دفعتها إلى تاكسى وانطلقنا إلى جبل المقطم . . هبطنا فى نهاية العمران . . اتجهنا عبر الأحجار إلى جرف المقطم . .

كانت البيوت القديمة مستسلمة فى سفح الجبل لظلام شديد . . وثمة بقعة من نور خافت تلمع هناك . . هناك ، وتجعل من النخلة المجاورة لبيتها شبحا مخيفا يراقبنا بعناد وقلت لنفسى : « لابد أن أخبر أهلى ، يجب أن أدعوهم لحضور زفافى على عايدة لكن أمى ستلطم وجهها وسيعلن أبى وعشيرته الحداد »

تماسكت أصابعنا وأخذنا نهبط المنحدر بحذر . . مرت دقائق كثيرة فتسلخت أيدينا وجرح وجهها ، وجلسنا على حجر نرقب الأفق الكثيف الظلام .

سألتها : أى أمن يغرى أباك بالتكهف هنا . . ؟

قالت : ورث البيت أبا عن جد .. قلت « مثل أبى تماما ..»

بذلت « ديدى » جهدا لتتماسك وضحكت .. أخذت أجفف جرحها بمنديلى فتأوهت . . قلت لها بقلق : « جرح غائر تحت العين مباشرة . . »

تمددت فوق الحصى والرمل ،وغمغمت :أكاد لا أشعر برأسى . .

تمددت بجوارها ، أسندت رأسها إلى صدرى ، ابتل قميصى بالدم . .

جرحت فى الحقل وأنا صغير . . لعق أبى جرحى بشفتيه . . « امتزجت أنفاسنا » ، وشعرت بعد وقت بالحيوية تنبض فى جسدها . قلت : تخطينا الخطر . .

ثم أضفت : أظن البيت صار قريبا ؟

داعبت رأسى وقالت : الظلام يخدعنا . .المسافة لا زالت طويلة .

سألتها : تريدين أن نقابله . . أم نهرب الآن . « فكرى معى . . ؟

قالت : نهرب من أهلى . . أم من أهلك . . ؟

وجذبت شعرى وضحكت فجأة ، ثم غنت أغنية جدتها الأولى « ألا تريد أن تمسح بيدك فى حنان على وجهى . . هاك صدرى فيضه لك يا حبيبى . . »

سألتها : . . هل فقدت صبرك أخيرا . . ؟

ضحكت ، أغرانى ضحكها ، تجاوبت أصداء الضحكات فى صمت المقطم وظلامه ، شعرنا برغبة جارفة . . تعانقنا ، وفوقنا كانت النجوم تتوهج ، ومن حولنا دارت الريح ممزوجة بعطر له نكهة سكر . . وتبادلنا الهمس . . « حاولت نسيان ما سيحدث فى قريتى . . . »

كنا نمتلىء بالحياة . . كان يبللنا الندى . . غنيت لها أغنية الحب الجارف . . قالت :

— ألا ترى أنها أغنية قديمة لعاشقين من أيام الفراعنة . . ؟

فقلت لها بثقة كبيرة : لو أنهما فشلا . . لما عاشت أغنيتهما كل هذه الآلاف الكثيرة من السنين . . ؟

ونهضنا ، سرنا متلاصقين : نقطع ما بقى من الطريق الطويل .

(٢)

بعد شهر ، بعد عام ، لا أذكر ، انتهت فترة تجنيدى ، وعدت إلى عملى ، كنت أشعر بالغربة ، قلت لزميلى معتذرا . . « جلست إلى مكتبك . . لأننى لم أجد مقعداً خاليا لى » ، فابتسم وأدار ظهره ، لاحقته قبل أن يغادر الغرفة « الحقيقة أننى لم أجد مقعداً و ... »

استدار الزميل ، كانت ابتسامته لاتزال تلمع على شفتيه ، قال أخيرا .. « لست فى حاجة إلى مكتبى » ثم أشعل سيجارته وانشغل بتدخينها فى صمت .

طال وقوفنا بجوار المكتب .. لاحظ هو ذلك ، فرجانى أن أعود إلى مكتبه كما كنت لأنتهى من عملى . . ازداد شعورى بالحرج .. وهو شعور لازمنى منذ عينت بهذه المحلة الفنية . . كان الجميع بها متآلفين . . لديهم أشياء مشتركة على الدوام أحاديث ، نكات وضحكات .. حاولت كثيرا أن أندمج معهم ،

أول أمس لجأت إلى عنتر صبي المقهى الذى تعودت الجلوس إليها لقربها من مسكنى .. بخجل شديد ، ابتسمت لعنتر . . وطلبت منه أن يحكى لى آخر نكتة . . ضحك الملعون . . ومال على أذنى وهمس بواحدة بذيئة .. ومضى مسرعا يلبى طلبات الزبائن من المشاريب والنكات التى كانت تهز كروشهم بالضحك .

فى الصباح دق التليفون . . كنت وحدى فى الحجرة . . والساعى يمسح اللوحة النحاسية بجوار الباب لتبدو حروف « المجلة الفنية » أكثر لمعانا . . تلقيت المكالمة لم تكن لى فزوجتى تذهب إلى عملها بعد أن نكون قد اتفقنا على كل شىء ، كما أنه لم يكن فى هذه المدينة أصدقاء يهمهم أن يحدثونى تليفونيا ؛ أسرتى فى القرية كنت أزورها .. وأغلب الأحيان تكتفى بالخطابات القليلة والموجزة ثم تضاعف سوء الفهم بيننا عندما تزوجت حبيبتى عايدة ..

تلقيت المكالمة ، كانت لواحد منهم ، فرحت ، عندما يأتى سأخبره ، ولعل هذا هو ما شجعنى على الجلوس إلى مكتبه .

انحنى الزميل وفتح درج مكتبه ، نهضت لأترك له المكتب ، فامتدت يده وأجلسنى ، ابتسمت له فى مودة بالغة ، وقلت له أن امرأة اتصلت به تليفونيا ، ابتسم وسألنى: هل تركت أسمها..؟ اعتذرت فى ارتباك شديد ، نسيت أن أسألها . شكرنى وهو يدخن سيجارته ولم يعلق بشىء !

طال صمته ، فخلعت نظارتي الطبية عن عيني ومسحتها بمنديلي ثم أعدتها فوق عيني ، بالأمس قالت « ديدي » : « حاول أن تدخل البهجة إلى قلوب زملائك .. » ابتسمت له معتذرا . . « لم أجد مقعدا و . . » كان لابد من كتابة التحقيق الصحفي لأقدمه إلى رئيس التحرير . . وحاولت أن أتذكر نكتة عنتر . . لكنني فشلت . .

قدمت له سيجارة ، أخذها شاكرا ، وجلس على حافة المكتب ، ولمح من جلسته هذه ما أكتبه فقال : « كانت تجربة موفقة .. » فأسرعت أقدم له ما كتبته من التحقيق ليقرأه . . هكذا رأيتهم يفعلون معا .. كل منهم يعرض موضوعه على زميله ويسأله رأيه .

أخذ الزميل الأوراق .. ألقى نظرة سريعة على العنوان ، وعلى السطور ثم أعادها إلى قائلا : « فكرة معقولة . . » ، وجذب نفساً طويلا من سيجارته وقال : « صحيح .. السفر إلى الجبهة .. أمر هام وجوهري . . لكن » دق قلبي فرحا . . هأنذا أخيرا أتحدث مع واحد منهم . . كم كنت مخطئا في ظني . . « ديدي » قالت لي هذا ، وهي دائما تعرف كيف تتحدث عن اهتمامات الآخرين .. يجب أن أكون أكثر شجاعة ، وأعترف بأنني ، أنا المخطيء !

على الفور ، بدأت حديثاً كنت في شوق إليه مع زميلي ،

فقلت : « لم لا تجلس إلى مكتبك .. ؟ » فقال ببساطة : « لأننى لن أكتب شيئا الآن .. »

قلت لمجرد إطالة الحديث : « ألا تحتاج إلى مكتبك إلا عند الكتابة فقط .. ؟ »

قال .. : « فقط وبالتحديد، عندما أعود من إحدى المأموريات الصحفية .. »

لا .. لن يموت الحديث بيننا بهذه السرعة . عدت أسأله : كيف . . ؟ أعتقد أن الإنسان تربطه بأشيائه روابط إنسانية من نوع ما !

قلت كل هذه الكلمات دفعة واحدة حتى كدت ألهث . . فنظر فى عينى عبر نظارتى الطبية وقال :

– « الحقيقة أنا لا تربطنى بهذا المكتب إلا لحظة الكتابة فقط . . »

نظرت إليه مستعداً لفتح جبهة أخرى للكلام إلا أنه أضاف وهو ينفث دخان سيجارته ببطء :

– وفى الأيام الأخيرة .. أكتب فى البيت .. !

ثم ضحك وصمت ، فانزعجت ، وأسرعت أشعل لنفسى سيجارة : « لا أعتقد . . فأنا أعتقد أن الإنسان تربطه بأشيائه علاقة إنسانية من نوع ما . ! »

نفس الكلمات تقريبا .. فجبهة الحديث معه يجب ألا تغلق فى وجهى . . زوجتى « ديدى » تحكى كل ليلة عن علاقتها بزميلاتها فى مؤسسة الخدمة الاجتماعية . . فهى تضيف سطرا أو سطرين فى « البلوفر » الذى تشغله زميلتها لأحد أطفالها . . كما أنها ترحب عن طيب خاطر بانجاز عمل لزميلة أخرى اضطرت إلى الخروج مبكرة من العمل . . نظرت إلى زميلى : ألست معى . . هه ؟ ! .

قبل خروجى إلى « الرديف » كنا فى الموقع . .

قاطعنى : أنا معاك . . أنا مثلا لدى قلم حبر لونه أسود .. وآخر لونه ذهبى ... وضحك . .

والعلاقة تربطنى أكثر بذى اللون الذهبى . . أشعر بأنه رشيق بين أصابعى وأنا أكتب به خطاباتى الغرامية إلى صديقاتى الجميلات ! ..

ابتسمت له وقلت مقتربا أكثر منه . . « ربما يرجع ذلك إلى سبب عاطفى . . أعنى ، أن القلم المفضل لديك ربما .. ربما . . كان هدية من . . » وخجلت أن أشير إلى صاحبة تليفون الصباح . . ضحك وقال « هذا شىء نسبى . . فربما كان القلم غير المفضل لدى هو الهدية التى تعنيها . . » وقهقه . .

فى الصباح قالت « ديدى » : « إنه لأمر هام أن يكون الإنسان

حذرا . . لابد من علاقة . . فالإنسان منا فى النهاية مجموعة علاقات إنسانية .. »

قال : « لا .. وصدقنى . . فأحيانا أفضل القلم الأسود . . المسألة تتم هكذا بغير تدبير ! .. »

عدلت نظارتى الطبية فوق عينى ، ونظرت إليه بدقة ، لم أكن قد لاحظت من قبل شحوب وجهه الأسمر . . وعرفت أن أنفه مدبب ، وشفتيه تميلان إلى الزرقة ، كمن يعانى من إحساس بالاختناق .

التقت نظراتنا عبر نظارتى ذات الإطار السميك . . قلت فى نفسى : لولا هذه النظارة لما استطعت رؤية ارتعاش شفتيه . . لابد أنه يريد أن يقول كلاما كثيرا .. والتحقيق الصحفى لا يهم إنجازه الآن أو فى أى وقت آخر . . فمنذ عملت بهذه المجلة . . وتحقيقاتى يؤجل نشرها ، لأنها – على حد تعبيرهم – تتضمن آراء لا تتفق وهدف المجلة . . إذن فلأعط أذنى لزميلى .. ابتسمت له . . وقلت :

– « هه .. ألست معى . . لاشك أنك معى فى أن الإنسان تربطه بأشيائه الخاصة علاقة إنسانية من نوع تلك العلاقة التى تربطه بأسرته ... أولاده .. بيته .. أليس كذلك .. ؟ »

دق التليفون . . فامتدت يد زميلى والتقطت السماعة . . طال صمته وهو ينصت إلى حديث التليفون . . تورد وجهه قليلا

. . نظرت إليه لحظة . . لاحظ هو ذلك . . فاستدار عنى . . فكرت : هل أترك الغرفة ليتحدث بحريته . لا شك أن ذلك سيحرجه ، انشغلت فى الكتابة . الحقيقة أننى لم أكتب حرفا جديدا ، كنت أفكر فى كل الذى دار بيننا . . و النهاية اعترفت بثقل ظلى فى الحديث . . زوجتى تتحدث دائما عن زميلة لها اسمها فاطمة وتقول أنها تحبها لأنها خفيفة الدم إلى حد كبير . .

قلت لنفسى : لأترك الحديث عن العلاقة التى تربط الإنسان بأشيائه .. ولأتحدث .. لكن عن أى شىء أتحدث معه . . ؟ عن المسافات الطويلة التى قطعتها من ممر متلا . . ؟ عن الأيام التى عشتها مع رفاق السلاح فى القناة .. ؟ أم عن المسافات التى تفصل بينى وبين الأهل فى القرية . . ؟ سأحكى له كيف واجهت والد زوجتى ، وأننى حتما سأواجه أبى وأمى . لقد سمعته يتبادل أحاديث مع زملائه . . ويضحكون كثيرا .. فلأكن مرحا إذن فى حديثى معه . . « عنتر » صبى المقهى حكى لى النكتة .. لكنها كانت مخجلة حقا .. هل أقولها له .. ؟ . . سيضحك منها كثيرا .. لكن من يدرينى . . ربما تضايق . . ربما فهم منها أننى عربيد أو فوضوى . . لا . . لا . . يجب أن يكون حديثى معه معقولا . . متزنا .. وخفيف الظل أيضا . . فهذه هى الوصفة الناجحة التى جربتها زوجتى مع زميلاتها وكسبت حبهن لها . .

ارتطمت سماعة التليفون ، وهو يعيدها إلى مكانها . . نظرت إليه مبتسما لكننى وجدته متوترا . رأيته ينهض عن حافة المكتب ويجذب نفسا طويلا من سيجارته . . واستدار إلى وقال باهتمام كأنه يفكر فى مشكلة شائكة :

– أتعرف ياحسام أننى أحسدك على حبك للصمت ..

وجذب نفسا طويلا آخر من سيجارته ، وتركنى وخرج ، أخذت أحدق فى فراغ الحجرة .. سقطت النظارة ذات الإطار السميك من يدى .. تهشمت ثم ساد الصمت . . لن أكمل كتابة « التحقيق الصحفى » عن رفاق القناة الآن ، سأذهب للأهل فى القريه .. لن تكون هناك « متلا » أخرى . .

قالت ديدى : أخاف منهم .

– قلت : سيحبونك كثيرا ..

قالت : يكفينى عناد أبى . اذهب أنت ، وقد أسافر معك مرة أخرى .

كان الخريف يلف الدنيا بكآبة مزعجة . . كانت السحب حبلى بمطر غزير . . تمنيت لو أن السيول هطلت دون توقف . . كان الأتوبيس ينطلق فى اتجاه القرية ، وصعب على التخمين بما سيحدث هناك .

(٣)

المسألة فى كلمة ونصف .. أن عبد الفضيل ركب رأسه ولم يسمع الكلام .. قالها أحمد عبد الكريم عرضحالجى القرية ، وهو يجلس القرفصاء فوق الدكة الخشبية فى مقهى القرية .

المسألة فى كلمة ونصف .. إن عبد الفضيل رجل على نياته وقصير النظر .. قالها الحاج سعيد تاجر الحبوب ، وهو ينفث دخان « الجوزة » من أنفه الأفطس ويسند رأسه إلى جدار المقهى بجوار أحمد عبد الكريم .

المسألة فى كلمة ونصف .. أن عبد الفضيل رجل طموح ولا يعرف أن صعود السلم لا يتم بقفزة واحدة . قالها شابى أفندى المدرس وهو يرمق « الجوزة » فى يد أحمد عبد الكريم بنظرة اشتهاء لا تفارق عينيه .

المسألة فى كلمة ونصف .. إن عبد الفضيل رجل مكافح يعتمد على نفسه ويجب أن تقفوا معه .. قلتها بضعف شديد وأنا أحاول الدفاع عن أبى .

وما لبث أن لفنا الصمت ، ودخان « الجوزة » يتصاعد فوق رءوسنا ويدور ببطء قبل أن يمتصه الهواء البارد المندفع من شباك المقهى المخلوع .

شب « أبو المجد » صاحب المقهى ، على أطراف أصابع قدميه ، وفتح الراديو ، انطلق صوت أنهى الصمت بأغنية « ع الضيعة يا أمة .. ع الضيعة » .

كنت أحب الجلوس فى المقهى كلما نزلت القرية لزيارة أسرتى .. كان أحمد عبد الكريم يناقش مشاكل أهل القرية فى المقهى كل ليلة .. كنت .. أبحث عن الجديد فى هذه المشاكل عله يعيدنى ، يعوض غيابى الطويل ، ويذيب برودة القاهرة بداخلى ، كانوا هذه الليلة – يناقشون مشكلة أبى ..

أصل الحكاية يا أم العيال ، إن الرطوبة نخرت الجدار . . قالها أبى وعيناه تتجاوزانى إلى الشرخ الذى امتد فى الجدار من فوق الأرض بشبر واحد حتى لامس السقف وانهارت القبة ، غطت الرمال دباباتنا .. تشبثنا بأسلحتنا وخوذاتنا سنة بعد سنة .. وكنا ..

أصل الحكاية يا عبد الفضيل ، إن بختنا مائل على الدوام .. قالتها أمى وهى تمتص شفتيها .. وتدفع بثديها إلى فم أختى الصغيرة لتسد حلقها .

أصل الحكاية يا أولاد .. إن البيت تحته بركة : قالتها جدتى وهى تدفع ببعض النشوق إلى طاقتى أنفها ثم عطست .

أصل الحكاية إن أخى ، صار مثل أعمامى وأخوالى لايزورنا إلا قليلا منذ ذهب يعمل فى « مصر » ، قالتها أختى ، وهى تنظر فى وجهى مباشرة ، التقت عيناى بعينيها ، هى أختى الكبيرة ، كدت أعاتبها ، هربت عيناها إلى وجه خطيبها الذى مكنه حادث الجدار المفاجىء من رؤيتها ،والجلوس معها بيننا ، فى غرفة واحدة .

أصل الحكاية ، إن البلد فى حاجة إلى مجارى .. مياه « البا كبورتات » تنخر أساس الجدران ، قالها أبو خيوه عامل النظافة فى البلدية وعيناه على وجه أختى التى قدم لها « الشبكة » فى الشهر الماضى .

أصل الحكاية أننى أحببت عايدة .. وتزوجتها وأننى .. ماتت حكايتى فى قلبى ..

***

المسألة فى كلمة ونصف .. إن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه .. ولا داعى لأن يركب عبد الفضيل رأسه .. ويبنى الدور الثانى .. قالها أحمد عبد الكريم وهو يخلع طربوشه المبقع ، ويفرغ ما به من أوراق وقلم كوبيا صغير .

المسألة فى كلمة ونصف .. إن دار عبد الفضيل قديمة ، باعها له جدى منذ سنوات وجدرانها لا تحتمل الدور الثانى . . لكنه على نياته .. قصير النظر ، قالها الحاج سعيد تاجر الحبوب وهو يستعد لمراجعة شكوى خاصة به مع أحمد عبد الكريم .

المسألة فى كلمة ونصف ، إن عبد الفضيل ، الذى عاش كل عمره يعمل أجيراً فى عزبة التفتيش حتى استطاع أن يعلم ابنه ويراه موظفاً .. وقد بنى الدور الثانى ليتزوج فيه ابنه .. وهو رجل طموح والله . لكنه لا يعرف أن صعود السلم لا يتم بقفزة واحدة .. قالها شلبى أفندى الذى كان يعلمنى فى مدرسة القرية الابتدائية ذات يوم بعيد .. وأردت أن أقول لهم إننى قد تزوجت لكننى ترددت ثم قلت لنفسى :

المسألة فى كلمة ونصف ، إن أبى عبد الفضيل ، كما تعرفون يا جماعة لم يرث عن جدى غير فأسه . . وخمسة جنيهات . . هى ثمن حصته فى دار العيلة وأنه عمل مع جدتى وأمى مع الأنفار .. وضع القرش على القرش ، حتى اشترى هذه الدار القديمة . . أبى رجل مكافح فعلا .. اعتمد على نفسه فى كل شىء ويجب أن تقفوا معه .. قلت ذلك وعينى بين أصابعى المتشابكة على منضدة المقهى وما جرى لزملائى فى « مثلا » يزحم رأسى ، فقد الرفاق كل شىء . . ولكنهم لم يتوقفوا عن القتال لشق طريق

العودة . وأبى لا يملك إلا أنفاسه وكرامعه ويدافع عن هذه الثروة بشراسة ، سيكون موقفى معه شديد الصعوبة .

أصل الحكاية يا أم العيال ، أن أحدا لا يعمل لجاره شيئاً . . يغرقون الزقاق كل يوم بمياه الغسيل .. والرطوبة تنخر الجدار من سنين . قالها أبى فى ضيق .

أصل الحكاية . . يا عبد الفضيل يا ولدى . . أن العين أصابتنا .. كأنك الوحيد الذى يزرع فدانين بالمؤاجرة — فى البلد .. إن بختنا مائل على الدوام .. قالتها جدتى .. والخوف يزيد من تصلب جلدها فوق نتوءات وجهها .

أصل الحكاية يابو العيال ، إن اليد الواحدة لا تصفق .. كان يجب أن تردم البلدية البركة الواسعة الموجودة تحتنا .. قالتها أمى .. وهى تطارد الذباب حول وجه أختى الصغيرة دون جدوى.

أصل الحكاية ، إن البلدية فى بلدنا صورة . يحصلون العوايد والأموال على الدور والزرائب والعربات الكارو ... ويوزعون المخالفات على التجار فى السوق وعلينا نحن عمال النظافة أيضاً . . قالها أبو خيوة .. وهو ينظر إلى الشرخ ليرى كم بقى له من الوقت الذى يقضيه بجوار أختى التى فرح بقبولنا طلبه ليدها .

أصل الحكاية أن أهلنا لا يسألون عنا .. قالت أختى ذلك .. وهى تنظر إلى شىء يلمع جلده فى الشرخ ..

المسألة فى كلمة ونصف .. إن عبد الفضيل تجاوز حدوده .. قالها عرضحالجى القرية .. وهو ينهى الشكوى التى كتبها ضد أبى الذى ثبت أنه يهدد أمن القرية .

المسألة فى كلمة ونصف ..

.. ارتفع صوت غطى على صوت يغنى فى راديو المقهى :
« وأشرح لها .. ها .. ها .. ها .. » كان أبى يزعق :
« يا أهل البلد » :

استغاثت أمى وأخواتى بصراخ جمد الدم فى عروق وجعل الكلاب تنبح والديكة تصيح . زام أبو خيوة وهو يحمل جدتى العجوز إلى الزقاق .. كانت تردد فى ذهول :

« عين وأصابتنا .. » خرست أختى .. ماتت صرختها فى حلقها .. وهى ترى ثعبانا يفح خارجا من الشرخ الذى اتسع فجأة وظهرت منه زريبة مواشى جارنا المتولى أبو منصور ...

حاولت أن أفعل شيئاً .. حملت أختى الصغيرة لكن أمى انتزعتها منى .. وقالت .. الحق أبوك .. بلل العرق وجهى .. ملأ التراب حلقى .. غامت عيناى .. هزتنى أختى .. تحرك ، أسرع

خطيها أبو خيوة وقتل الثعبان بحجر وأسرع إلى الزريبة ليفك رباط البهائم التى كانت تخور باضطراب .. كانت كميات الدماء مخيفة ، وكانت سيناء واسعة — وعجزت عن انتزاع قدمى من الرمال فالتصقت بالأرض حتى أنقذنى بعض أهالى السويس ، كانوا يحملوننا فى صمت .. كان حزنهم يصيب الأرض والسماء بشلل فظيع .. لكنهم كمارد عملاق ضخم ظلوا يحملوننا وسط الدمار ..

اتصل نداء أبى : « يا أهل البلد » ، ودار فى سماء القرية محاطا بهالة من استغاثات أمى وأختى والجيران .

التقت نظرات الرجال فى المقهى وقال أحدهم للعرضحالجى : « لا تشكوه يا عم أحمد فهو رجل طيب .. » .

المسألة فى كلمة .. أن الرأى للجماعة .. قالها أحمد عبد الكريم وهو يحدق فى وجوه الرجال ، ثم أضاف : وأنتم المجنى عليه ، وأنتم الشهود أيضاً .. » وصمت .

***

بح صوت أبى .: اهتز سقف الدار تحت قدميه .. هرول نازلا ، خلع ثوبه ، قذفه فى وجه أمى ، صاح بى أن أخرج من الدار إلى الزقاق .. « سمعته يقول لأصحابه كثيراً إننى بالنسبة له مثل زرعة القطن .. يخشى أن تأكلنى الدودة .. إذا غفلت عيناه ».

رأيته يهرول فى الزقاق .. من خلفه جرت الكلاب ونبحت.. سمعت دقاته على باب الشيخ عيد ، الذى يوقظ الناس للسحور فى رمضان بطبلته كما يوقظهم كل ليلة لصلاة الفجر ..

خبط أبى بابه .. كاد يكسره .. هب فيه الشيخ عيد .. قال له أبى : هات الطبلة .. صحى البلد ..

لا بد أن الشيخ كان يبصق كعادته .. واستعاذ بالله من كل شيطان رجيم ، وهو يقول : « صلينا العشا .. من ساعة واحدة يا عبد الفضيل وفاضل كتير على الفجر ! »

صرخ أبى : « دارى تقع يا شيخ عيد » .

قال الشيخ وهو يرد بابه .. « عندما يحل الفجر إن شاء الله سأوقظ لك البلد كلها يا عبد الفضيل » .

بكى أبى كما لم يبك فى حياته .. قال لى مرة إن جدى مات وهو صغير .. فلم يبك عليه .. وإنه بكى مرتين .. يوم ضربوه فى دوار التفتيش .. ويوم أصبت أنا فى « متلا » ، الآن كانت دموعه تنفجر من قلبه .. من نخاعى شعرت بها .. تنبثق من لحمه ودمه .. وهو يقول :

– يا ناس .. شرخ الجدار اتسع .. قل لهم يا ولدى ..

وقع الجدار .. كلمة رددها الناس فى قريتنا ولم يكن هناك وقت لأخبرهم بزواجى من « ديدى » .

(٤)

السادسة صباحاً . . زوجتى تترك الفراش بحذر شديد .. بنصف عينى رأيتها . استدرت فى سريرى الصغير .. أخذت أتذكر حلم الليل .. فتحت زوجتى باب الشقة بهدوء . . بالأمس قلت لها إننى فى شوق إلى لحم أوزتها التى ترعاها بعناية شديدة فى منور البيت .. « آه .. تذكرت .. كنت فى عربة نقل تنطلق بغير سائق على طريق صخرى .. و .. » ثم صرخةمليئة بالحسرة.

تمزقت خيوط الحلم عندما صرخت « ديدى » حبست أنفاسى لحظة .. لم تكرر صراخها .. أرسلت لأبى رسالة أخبره بزواجى وأتمنى له المزيد من الصبر حتى يعيد إصلاح الدار .. بعد أسبوع جاء الرد قاسيا ، دخلت ديدى الحجرة .. وقفت بين السريرين .. رأيت الدموع فى عينها .. داهمنى إحساس بالخوف لقد غضب أبى وغضبت أمى وقالت أختى الكبيرة « كانت وفاتى أهون » ، فى يوم العيد مر أبوها ببابنا .. لم يدخل . . نظر إلينا طويلا وابتعد

حتى لا أرى دمعة فرت من عينه .. جلست أمها قليلا ثم لحقت بزوجها الكهل .. لم يسألانى عن الجدار الذى انهار فى دار أبى .. حتى أمها لم تسألنى عن أمى .. شيء رهيب جدا أن تكون فى زورق مثقوب

سمعت شهقة زوجتى . امتدت يدى إلى علبة السجائر .. همس قلت لها :

كان أبى يبنى الدور الثانى من الدار ليزوجنى فيه..وضحكت أداعبها ثم قلت : لا تظنى أنه لهذا السبب الجائر وقع الجدار .. لم تعلق بشيء .

أشعلت سيجارتى دون أن تعترض ديدى تأكدت أن حزنها شديداً .. كانت تؤنبنى دائماً .. « انتظر لحظة حتى تأكل شيئاً .. » مضيت لحظة ثقيلة و دخان سيجارتى ينعكس على مرآة معلقة بالجدار يظهر منها قدما زوجتى .. نظرت إلى وجهها .. لا شك أن الأمر خطير .. ليلة الزفاف كانت مضطربة .. أوصتنى أمها .. « كن لها أبا .. وأخا .. » .. لابد أنها صرخت قبل أن أناول « عرضها » لأمها التى أصرت على ذلك .. وقالت « لابد أن أخرس الألسنة » .. ظل دوى الزغاريد زمنا فى أذنى ، بكى والدها عجزاً ، لكنه أهدانا قدراً لا بأس به من « خزين البيت » .

إنهارت ديدى بجوارى .. اهتز جسدها من البكاء .. لا ك
أنها صرخت بالفعل ..

كانت عربة النقل تتأرجح فوق صخور الطريق . . برر
الصديق الذى شهد على عقد الزواج الأمر كله بكلمات : « الفرق
بين عمرك وعمر والدك عشرون سنة .. كيف تطالبه بالموافقة على
زواجك من بنت لم تخترها لك أمك » ، حضر زملائى فى
« المحلة » وغنوا وشربوا ورقصوا طوال الليل ! ..

أحلامى دائما مزعجة .. عادت « ديدى » تشهق فى ألم
شديد .. اعتدلت فى جلستى .. غاص بى السرير الصغير ..
أصبحت مرآة الجدار فى ظهرى ، لولا انهيار الجدار ما سمح أبى
لأختى بأن تجلس فى حجرة بها خطيبها ، حاولت مرة أن أناقشه
فى حق البنت أن ترى خطيبها فضحك ضحكة ذبحتنى ..

نمت بالأمس على هذا السرير الصغير .. لم تعترض ديدى..
لم تقل أن السرير سيهبط فوق قفص الحمام الموضوع تحته منذ آخر
زيارة قامت بها أمى لتبلغنا غضب أبى .. لم تقل « ديدى » أن
هذا السرير لابننا المنتظر ، أمس ، وقبل أن ننام اختلفنا على
اسم الولد .. نمنا دون اتفاق .

حاولت أن أتذكر تفاصيل تلك الزيارة .. كان الأمر صعبا

يبدو أن ذلك حدث منذ عام ظلت أمى صامتة تبكى وسافرت فى الفجر وهى تقول : « أبوك مصمم تطلقها » ..

ما زالت « ديدى » تبكى فى انفعال حقيقى .. فى يونيو .. قالت لى إنها بكت كثيراً من أجلى .. قلت لها يومها إن الحزن والرعب يفقدانى القدرة على البكاء .

اليوم كنت أدخر لها مفاجأة سارة للغاية .. كنت سأحكى لها « حلم الليل » عن عربة النقل التى انطلقت بى بلا سائق عبر طريق صخرى .. هى تحب الأحلام .. تحلم كل ليلة .. أول أمس ذهبت معها إلى الفراش .. أسلمتها إلى النوم بحدوتة العصفورة التى تزور نافذتنا كل صباح .. كانت رغبتها فى الإنجاب عارمة .. كان شوقى إليها مشلولا ، بالغضب .. وعادت إلى بعد منتصف الليل ، كنت مع كتبى وأوراقى .. جلست قبالتى تعد فنجان القهوة على موقد السبرتو .

قالت : أنا حلمت .

قاطعتها كعادتى : خيرا .

قالت : — حلمت إنك أخذتنى مع « ولدنا » إلى حديقة الحيوان — ابتسمت فى خجل ، أكملت حلمها .. « وفى الحديقة

سقط « خالد » فى جبلاية القرود وخطف الأسد ذراعى .. »
قلت : لم نتفق أن اسمه سيكون « خالد » . غضبت منى فقلت :
أرجوك كفى عن هذه الأحلام المزعجة .. قالت خيرا .. لقد مر
« خالد » بالحصبة فى سلام .. أتذكر — « كان حلمها بالولد
قاسيا لا يقاوم .. أخيراً .. فاجأتنى بقولها : — « الوزة »
وصمتت .

قلت مداعبا .. علنى أطمئن نفسى قليلا : « هل سبقنى
إليها كاب الجيران » .

قالت .. « شنقت نفسها ! .. »

اتسعت عيناى دهشة .. وضحكت باحثا عن بعض العزاء ..

قالت : كف عن الضحك ؛ ثم مسحت دموعها بمنديلها
وقالت : « إنها معلقة من رقبتها فى العشة .. » قهقهت حتى
امتلأت عيناى بالدموع .. وقلت : « انتحار أوزه .. « ديدى »
أتعرفين انه عنوان مثير لتحقيق صحفى سأكتبه يوماً ما عن حى
العمرانية والمهجرين بعد مذبحة ممر متلا وتدمير السويس ..

— « . . . . »

— زميلى قال إن علاقته بأشيائه ليست قوية .

- « . . . . . . »

- تعرفين طبعاً إن نظارتى الطبية قد كسرت فى المجلة .. هه؟.

صاحت بألم شديد : « حسام .. » ثم انخرست مقهورة .

أطفأت سيجارتى .. ونهضت من فراشى ، واجهت مرآة لجدار لحظة رأيت قدمى زوجتى تستديران للخارج . . استدرت خلفها .. من غرفة النوم إلى المنور فى صمت وأخذت بشكل جدى ، أحاول أن أتخيل صورة أوزة تنتحر .

هبطت زوجتى إلى المنور .. انحنت أمام باب العشة ثم نهضت يخنقها البكاء .. ترددت فى الهبوط إليها .

إن زوجتى لا تخرف هذا الصباح .. الأمر جاد إذن ، سيطر على الخوف المعتاد من مواجهة الموتى .. منذ سنوات طويلة مات شقيقى فتحى .. كان فى اليوم السابع من عمره .. كنت أنا الذى أختار له اسمه .. وفى الصباح صرخت أمى .. وظلت تنهنهه عدة أيام .. قالت ديدى : « انظر .. شنقت نفسها » .

هبطت إلى المنور .. تقدمت إلى العشة فى صمت .. سيطرت على رهبة مخيفة .. عندما حاذيت زوجتى لمعت الدموع فى عينى فأحنيت رأسى .. وركعت على ركبتى ووضعت يدى فوقها ..

كمن يصلى .. وأدخلت رأسى إلى العشة .. « كانت الوجوه الشاحبة مغطاة بالدم والرمال ، كانت أصابعهم ملتوية متشنجة ، كانت عيونهم مفتوحة بفزع فى ممر الموت ، كان من الصعب العثور على بقايا أحلامهم التى تبعثرت بعرض سيناء وطولها .. »

عندما ذهبت إلى عملى ، بعد ساعتين ، وجدت زملائى يتحدثون — كعادتهم عن « حرب الاستنزاف » جلست صامتا . أخذت أدخن سيجارتى ، فقدت القدرة على الكتابة .. قال أحدهم نكتة ضحكوا لها .. لم أضحك برغم حاجتى إلى ضحكة عنيفة تهزنى من أعماقى .. يحلق أحدهم فى ساق النجمة التى جاءت تزور زميلنا المحرر السينمائى سألنى أحدهم .. « فى رأيك .. هل سنحارب ونعبر إليهم حقاً ؟ » .

نظرت إليه طويلا .. تمنيت أن أقول :

« بغير شك .. لابد أن نحارب .. أتعرف لماذا .. ؟ .. لكنه لم يعطنى الفرصة .. جذبته نكتة جديدة تلقيها نجمة السينما ، أخذت نفسا طويلا من سيجارتى .. كنت سأحكى عن انتحار الأوزة وسقوط الجدار .. وذكريات الرفاق فى الخنادق لكننى ابتلعت كل ذلك وصمت .

***

فى الليلة التالية ، حاولت أن أتذكر تفاصيل حلم الليل ، وعربة النقل التى تندفع عبر طريق ملىء بالصخور .. لكننى بعد وقت مرهق فشلت .. كانت الأوزة المعلقة من عنقها فى حبل يتدلى من سقف العشة تملأ كل رأسى .. وبجوارى كانت ديدى تحلم بولد تحكى له حدوتة العصفورة الجميلة التى تطل على نافذتنا فى الصباح . وكنت أنظر إلى وجهها المعذب وأنا أحاول أن أفهم المطلوب منى غدا ..

(٥)

أول أمس – كان الثلاثاء – اكتشفت أنني بلغت الثلاثين من عمرى .. لم أفاجأ بهذا الاكتشاف .. كان لابد أن يحدث هذا ذات يوم .. لم يكن هناك حفل عيد ميلاد .. منذ سنوات قلت لأبى وأمى .. أن اليوم عيد ميلادى فابتسما فى طيبة شديدة .. وصمتا .. عرفت فيما بعد أن الفلاحين لا يعرفون هذه العادة السيئة .. أن يحتفل الإنسان بعيد ميلاده ، هناك الاحتفال بيوم السبوع فقط .

كنت مصابا بالإنفلونزا .. درجة حرارتى تقترب من الأربعين كما تصورت .. لم تكن لى رغبة فى أى شيء ، شربت كمية من عصير الليمون .. تعاركت مع « ديدى » ... تبادلنا كلمات حادة ومارسنا الحب بعنف ! ..

رأسى يدق .. أحاول أن أقرأ شيئاً .. تعبت عيناى وتداخلت سطور الجريدة حلم زوجتى بالولد صار عمره ثلاث سنوات :

منذ أعوام مرضت . . كنت أعزب ومدللا من الأسرة . .
وكنت قد لجأت إلى القرية .. بعد رحلة ضياع فى البحث عن
عمل بالقاهرة .. كان لأختى صديقة جميلة .. زارتنى كثيراً ،
ذات ليلة حاولت أن أقبلها .. غضبت وقالت لأختى الكثير من
خيالها عن هذه الفضيحة ، زوجتى ملأت الشقة بلعب ابننا المنتظر
.. دراجة صغيرة ، دبابة طيارة ، عروس ذهبية الشعر خضراء
العينين ، مكعبات تعلمه البناء والحروف الأبجدية والأرقام . .

خرجت من « الحمام » والجريدة بيدى .. تململت فى ضيق ..
لا يوجد تليفون لأعتذر لرئيس التحرير .. كان لابد أن أذهب
إلى المحلة .. قالت زوجتى .. « فى الجريدة صفحة ممتعة للحوادث» —
« سمكرى فى السابعة عشرة من عمره يقتل زوجة مقرىء معروف ..»
« رجال مجهولون يهاجمون عجوزاً فى السبعين ويسرقون سبعة آلاف
جنيه — بقية المنشور بالصفحة الأولى : — رئيس مجلس الأمة
يجتمع بعدد من طلاب الجامعات » — « أف .. صياح الولد يحول
هذه الشقة الضيقة إلى سيرك » كانت « ديدى » تناغى « خالد »
وتتقاذف معه اللعبة وهى ساهمة .

— « وعدتنا بمشاهدة السيرك .. ومسرح العرائس عشرات
المرات » .

— « متعب .. مرهق .. »

— « لن تفى بوعدك أبداً .. »

التقت نظراتنا .. زوجتى طيبة جداً .. لا تعرف أننى لم أشاهد نفق ميدان التحرير منذ رأيناه معا .. قرأت فى الجريدة خبراً مثيراً : « ١٣ قرداً ولدوا فى حديقة الحيوان سنة ١٩٦٨ .. »

تعبت عيناى .. أكملت زوجتى القراءة :

— « حديقة الحيوان .. أجرت الجرد السنوى للتعرف على الحيوانات والطيور التى وردت لها عن طريق الهدايا والبدل والشراء والولادة .. » سألتنى : « أريد ولداً يؤنسنا ؟ »

أشعلت سيجارة .. قالت : « التدخين يضرك » قلت : « أكملى من فضلك هذا النبأ المثير » ، وتمددت فى الفراش .. قبلت صديقتى فى حديقة الأسماك ذات يوم بعيد « وسلاحف ونمس وقنفذ وعدد من العصافير والكناريات .. » أصرت زوجتى على شراء عصفورى كناريا يوم الزواج .. كنا نتسلى بغزلها .. كنا نترك لها باب القفص مفتوحا .. فرا ذات مساء وتركانا وحيدين .. « والشراء ٧ ثعابين مختلفة الأنواع .. ، ٢ قنفذ ، ٢ ثعلب ، ٢ ضبع .. وواحد دساس صعيدى » .. جاء الجد الأول من الأقصر إلى المنصورة ، معلقاً فى كتفيه « حبال » المركب الشراعى ، كان يجذبها مع رفيقه ليل نهار .. هبط فى مولد الشيخ

« أبو حلاوة » . . ولم يترك القرية من يومها فقد تزوج الجدة الأولى ، « أما الحادث السعيد فى الحديقة سنة ١٩٦٨ فهو : ميلاد ١٣ قردا مختلفة الألوان . . ، ٧ من السباع الأمريكية . . ، ٢ دب . . ، ٤ تياتل من نوع الغزال ، ١٠ طواويس ، ٣٥ دجاجة ، ١٠ فئران ٢٠ نعامة .. يقول زملائى فى المجلة أننى أدفن رأسى فى الرمال . قالت : أحلم بشيء .. أريد أن يكون خالد مثلك .. ما رأيك ؟ ..

— « أشياء مشرفة حقاً .. »

— متى نزور حديقة الحيوان .. سأجن فى هذه الشقة »

— « .... »

— « أحس أننى فى سجن .. »

— « .... »

— « منذ تزوجنا وأنا لا أخرج معك »

قلت : « بعد أن تذهب الإنفلونزا .. وتهدأ الأحوال .. »

— « دائماً تجد طريقة للهروب .. »

وقامت تعد كوبا من عصير الليمون ..

— « هذه المرة .. وحياتك .. لم أفكر فى الهرب ، لكن حديقة الحيوان مغلقة ! ..

ـ لا تصدق هذا يا رجل .. »

ـ لكننى سمعت . .

ـ « سمعت .. ؟ ماذا إذن كنت ستقول لو لم تكن صحفيا ؟ »

ـ «كنت سأسمع أيضاً .. ففى كل الأحوال لا أجد الفرصة لتحرى الحقيقة . وتقاذفنا باللعب طويلا حتى تعبت .. تذكرت رئيس التحرير .. كان قد طلب منى تحقيقاً صحفياً عن حديقة الحيوان .. تمنيت أن يكون زميلى المصور قد ذهب والتقط الصور اللازمة ، لو أنه فعل . . فإن ما بقى سيكون سهلا . . سأخرج الآن لأحاول .. قالت .. « قد تحدث لك مضاعفات »

جاءنا صوت المذيعة .. « والطقس اليوم شتوى معتدل .. » وانتهى موجز الأنباء دون إشارة إلى « مظاهرات الجامعة » . . لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً .. قبلت « ديدى » وخرجت .. الحرارة ترعش جسدى .. أحسست بدوار خفيف فى الأتوبيس .. تركت نفسى للزحام يسندنى ، تململ جيرانى .. قال أحدهم « امسك نفسك . . » اعتذرت له . . قال أبى ذات يوم « ياولدى كن صلبا .. جدك ضرب ناظر العزبة قبل أن يموت .. » أردت أن أقول له والناظر الجديد ضربك مرة .. لكننى خفت أن يضربنى

تذكرت الحديقة الخربة والوردة البيضاء فى القناة ، قال أحدهم « المسألة ليست بسيطة » ! ..

وقال آخر .. « أنا لا أفهم شيئا » — لو أشرب شايا مع زملاء الموقع .. ؟

قال الراكب الذى استند إليه .. « من قال أن الإهمال جريمة سهلة .. كان لابد من أحكام أشد .. الشنق على الأقل ! .. فالجريمة هنا هتك عرض بلد وناس وتاريخ ..

صاحت راكبة : « أنا .. لا أقبل هذا على نفسى .. » وضج الركاب بالضحك ، قلت لنفسى .. أن هذه بداية معقولة .. للتحقيق الصحفى ، فى غمرة الضحك التصق بها أحدهم .. كان يقف خلفها ويبالغ فى الثناء على شجاعتها ..

هبطت عند سور الحديقة ، عبرت الشارع .. تركت المشتل « الذى شهد فصلا مثيرا من حكاية أبطال الهزيمة ! .. » خلفى ، ملت شمالا لأصل إلى حديقة الحيوان .. اعترضنى أحدهم :
— « ممنوع .. »

حاولت أن أشرح له المشكلة العاجلة .. وأننى لابد أن أكتب التحقيق اليوم .. صرخ : ممنوع .. تراجعت .. اتجهت إلى شباك تذاكر الدخول .. اشتريت واحدة .. واقتربت من باب الدخول

« سأقفز السور وسيكون تحقيقا مثيرا .. سيفرح به زملائى القدامى هناك « إذا وصلتهم المحنة الفنية .. »

— « ممنوع .. »

دهشت .. كان الحارس يضع خوذة على رأسه ، ويمسك بعصا طويلة .. ابتسمت له : إننى أحمل تذكرة دخول ..

— « أعدها وخذ نقودك .. »

— « لكننى أريد أن أدخل .. »

— « ممنوع لماذا .. « ديدى » ستجن إذا لم ننجب ولدا ، اسمه خالد .. ورئيس التحرير سيقول أنه لا أمل على الاطلاق فى مواهبى التى أدعيها إذا لم أسلمه الموضوع الليلة .. اقتربت من الجندى أكثر وقلت .. « أرجوك أن تفهمنى .. لقد جئت لأشاهد حديقة الحيوان من الداخل .. لكى أتنزه .. ومعى تذكرة تعطينى هذا الحق .. »

— « ألا تفهم .. » رفضت أسرتى عروض الصلح ، قاطعونى .. فقدت القدرة على الابتسام .. والد ديدى مازال يتشبث بالحياة ، تجهم عندما زرناه منذ شهور ..

العسكرى يسد الطريق أمامى بكل جسمه .. ثم اختطف منى التذكرة وقال مهددا :

— « أعدها وخذ نقودك .. وإلا مزقتها .. »

— « ولم باع قاطع التذاكر هذه التذكرة إذن .. ؟ »

— « ليس هذا من شأنى أنا . . « قالت حماتى » أن ديدى قادرة على الإنجاب وأننى مثل زوجها .. انشغل الحارس بإصدار أوامره إلى بعض زملائه .. ثم استدار .. إلى .. وقال ناهرا .. « أمازلت هنا .. » ؟

فاجأنى بالسؤال « بطاقتك » إذا سمحت .. ؟

ابتسمت . . لأكسب ثانية أو ثانيتين . . أخيراً قلت وأنا أبحث فى جيوبى :

— « آسف .. يبدو .. أننى نسيتها ! .. »

نظر إلى طويلا . . أسرعت أقول . . « معذرة لهذا الخطأ غير المقصود » ارتعشت فجأة .. ماذا لو فتشنى .. ؟ ابتسمت وقلت .. « إننى أثق فى قدرتك على معرفة الناس .. « وضحكت» إننى حقاً مريض اليوم بالإنفلونزا .. لكن هيئتى ألا توحى لك بأنى . . « وضحكت » .. أقصد . . إننى أعمل صحفيا باحدى المجلات .. « وضحكت » .. وقد حصلت على أجازة مرضية « وضحكت » .. لكننى ضقت بالبيت « وضحكت » إنك متزوج.. أليس كذلك .. وتعرف هذا .. الشعور الذى ينتابنا كمتزوجين

« وضحكت » .. فقلت لم لا أخرج اليوم وأعطى لنفسى أجازة من البيت .. « وضحكت » ومن الزوجة أيضاً .. لقد جئت إلى هنا لأشاهد قرود الجبلاية « وضحكت .. » كان مصرا على قسوته .. كان رفاق السلاح يملأون الموقع بالغناء والمرح ويتبادلون السجائر ويقتسمون أكواب الشاى ويعاكسون بنات السويس .. « وضحكت » وحاولت أن ..

استدار الحارس .. أعطانى ظهره .. بدا عريضا .. كان حزام الجلد العريض يلمع حول وسطه .. كان حذاؤه لامعا أيضا .. والعصا الطويلة فى قبضته كانت لامعة هى الأخرى .. التصقت إلى جدار السور .. رأيت نقوشا بارزة لمصرى قديم يصطاد أسدا وقردا يداعب غزالة ، نظرت إلى تمثال نهضة مصر .. الفلاحة تستند إلى رأس أبى الهول فى ثقة كبيرة .. فكرت لعدة ثوان .. أشعلت سيجارتى .. نظرت إلى تذكرة الدخول بين أصابعى .. كانت مبتلة بالعرق .. اكتشفت بنظرة مفاجئة إلى الداخل خلو الأقفاص من حيواناتها .. ثقلت رأسى .. كانت الشمس غائمة خلف السحب الكثيفة .. كان الجو على وشك الانفجار فى أمطار غزيرة .. اتجهت إلى الطريق .. كانت قدماى تهتزان بشكل ملحوظ هذه المرة .. عندما رجعت وجدت « ديدى » تجلس فوق الدراجة الصغيرة التى اشترتها للولد المنتظر ..

وقفت أرقبها وهى تجرى بها فى أرجاء الصالة الضيقة وصدمت فى الجدار ووقعت وصاحت :

– سأترك لك البيت ! ..

قلت لها : لا . . سأذهب أنا . . سأبحث عن مكان أسافر إليه ! ..

لكنها تعلقت برقبتى .. وقالت : أنا أحبك.. وأريد ولدا .

(٦)

هكذا حدث كل شىء ، وطاردنى الإحساس بالضياع . . رأسى يكاد ينفجر .. قطرات المطر تسيل من شعرى على أذنى وبجوار أنفى ..وضعت يدى فى جيبى البنطلون بعد أن رميت بالجريدة المبتلة ، عبرت الطريق ،غاص حذائى فى المياه المتدافعة إلى بالوعة بجوار رصيف الشارع . . دخلت مقهى يطل على الميدان . .

عبر زجاج باب المقهى ، رأيت النصب الرخامى ، وقطرات المطر تتدافع على رخامه البنى وتغسله .. ما من مرة عبرت هذا الميدان إلا شعرت بهذا النصب البنى اللون يثير فى خيالى صورة غريبة .. ذات مرة خالفت إشارة المرور وتخطيت السور الحديدى الذى يرتفع عن الأرض شبرين فقط ، ووقفت أنظر إليه ، وجدته أكثر ارتفاعا ، حذرنى الحارس الذى يعنى بحديقته ، لم أنصت إلى تحذيره ، تقدمت من النصب ، تحسست رخامه بأصابعى .. براحة يدى كلها .. وجدته باردا .. تبادلت مع حارسه ابتسامة سريعة .. كان المقهى مزدحما ودافئا .. نظرت إلى رسالة أبى التى وصلتنى « بالبريد المسجل » . . يجب أن أفهم .. ماذا يريد أبى ؟! . .

تبعثرت نظراتى مع السيارات والناس المتدافعين فى الشارع .. رئيس التحرير أعلن فشلى لكل الزملاء .. وقال أن موضوع حديقة الحيوان لم يكن سينشر ، لكنه كان يجب أن يكتب .. وضع الشاب ذو الرداء الأبيض ، كوب الشاى أمامى .. وبجواره ترك فاتورة الحساب .. اهتزت المنضدة عندما مددت ساقى .. غيرت الرياح اتجاه الأمطار .. انكمشت فى مقعدى .. أحطت كوب الشاى بأصابعى العشرة .. تدريجيا بدأت أشعر بدفء الكوب .. منذ عامين أريد أن أكتب رواية « حلم الليل والنهار » احتسيت الشاى بآلية .. قالت زوجتى أن « خالد » سيكون فى حاجة إلى « دادة » .. انفجرت فيها .. كيف ندبر أجرها .. وفى الوقت نفسه ندفع أقساط الأثاث .. وقلت لها .. « فى رأيى أن تستقيلى من عملك فى مؤسسة الخدمة الاجتماعية لترعيه .. ثارت فجأة وضربت لعب خالد بقدمها وقالت .. أنه لن يكف عن الصخب ، ثم أضافت : .. لم لا تعرض نفسك على طبيب ؟

انسحبت من الشقة .. اكتشفت شيئا غريبا .. كل الشوارع والسيارات .. والناس .. تدور حول النصب الرخامى .. ابتسمت لنفسى .. أنه اكتشاف غريب فعلا لكنه عديم الجدوى ..

طلبت فنجان قهوة .. وأخرجت من جيبى الخطاب الذى وصلنى أمس من القرية .. أعدت قراءة خاتم البريد الباهت .. كنت أريد أن أخبر زوجتى بوصول خطاب أبى .. لكنها كانت تناغى الولد المنتظر .

وضع الشاب الأسمر فنجان القهوة أمامى . . وبجواره ترك فاتورة أخرى .. بجانب فاتورة الشاى . .

بالأمس تناولت دواء الإنفلونزا . . وحاولت أن أكتب الفصل الأول من الرواية لكن رأسى دق بعنف ، قالت زوجتى «كيف تترك عملها ، وتحبس نفسها فى البيت » ، قلت لها : ترنية « خالد » أهم بكثير من أى شىء آخر .. أعادت اقتراحها بالبحث عن « داده » قلت .. أننى أيضا فى حاجة إلى من يرعانى ضحكت بمرارة وأضفت . . أريدك أما .. وأختا . . وأبا . . ما رأيك يا زوجتى العزيزة .. لكننا مللنا اللعبة .. وأدركنا أننا فى حاجة إلى معجزة حتى لاندمر حبنا . .

أخرجت دفترى وسجلت ملحوظة تقول .. « أرى الاستفادة من كل هذا فى كتابة الفصل الأول من روايتى » ، أغلقت دفترى وشربت القهوة .. لن تكف ديدى عن اجترار حلمها بالولد خالد .. ولن يكف رئيس التحرير عن إعلان فشلى فى دخول حديقة الحيوانات يوم مظاهرات الطلبة ! ..

أغلقت دفترى وطلبت شايا .. وذهبت إلى دورة مياه المقهى .. لو أن أبى يرضى أن تسافر ديدى معى إليهم فسأكون أكثر توازناً مع نفسى ومع الحياة ، سأستعيد ثقتى بأشياء كثيرة .

أشعلت سيجارتى . . وأعدت قراءة رسالة أبى . . رشفت الشاى ببطء .. وأخرجت قلمى — ربما بحكم عادتى فى العمل .. وضعت خطا تحت بضعة أسطر من الرسالة .. تقول .. :

— « أعرفك يا ولدى أننى كنت أريد بناء الدور الثانى من الدار لنزوجك فيه ، وأن وجودك فى مصر لا ضرورة له .. عملك لا ينفعنا فى شيء ، وابنة خالتك ستكون زوجة صالحة .. »آه لو عرفت ديدى الحبيبة .. حتما ستصر على طلب الطلاق لو عرفت بهذا الخطاب .. إن أبى يصر على نسيان أننى تزوجت منذ ثلاثة أعوام ، وأحاول إنجاب حفيد له.

قلبت ورقة الخطاب ، وأكملت الرسالة .. « ولا أخفى عليك يا ولدى أننى حزنت جدا لرسالتك الأخيرة .. كيف تطلب منى يا ولدى أن أبيع الدار ، وأهاجر أنا وإخوتك وأمك وجدتك .. إلى مصر .. كيف .. ابنى دارا عندك . ودارى هنا ؟ أكل هذا تفعله لأننى طلبت منك أن تساعدنى فى إعادة بناء الدار بعد أن وقع الجدار بسببك يا حسام أفندى ؟ .. »

دفعت ثمن الطلبات للشاب الأسمر ، وخرجت إلى الطريق .. كان الأسفلت يلمع .. المياه تندفع إلى البالوعات ، .. سقطت قطرات من « تنده .. » المقهى على رقبتى .. رفعت رأسى ، ومسحت شعرى حتى لا يصيبنى الصداع .. كنت أعمل فى أرض التفتيش مع أبى والأنفار فى موسم جنى القطن — لتوفر بعض المال اللازم لمصاريف الدار وزراعة الفدادين .. كنت أضحك سعيدا كلما وقعت فى الوحل ، كان أبى ينهرنى « فز قوم ..خليك راجل .. »

ابتسمت للذكرى .. رفعت رأسى أكثر .. سرت دون أن أبالى بالأمطار التى تبللنى — لكن لابد أن تعرف ديدى أن ابنة خالتى تنتظرنى وفكرت : كيف أخبرها بأننى سأهرب غدا ؟ ! ..

(٧)

كنت أعرف أنها رحلة إلى الخطر والذكريات الحزينة .. ومع ذلك هربت من زوجتي ديدى .. التصقت بجدار ملىء بالثقوب ، محاط بالهدد .. التصقت ذقني بياقة قميصي المبتل .. تدحرجت أنفاسى لاهثة .. عوى كلب هزيل ناحل الشعر وانكمش خلفى .. عادت الأرض تهتز « بم .. بم .. بووو » .

صاح صبي يحمل على رأسه جريدة الخبز .. : « الصواريخ العميا » وانطلق بدراجته فى اتجاه المخبأ .. « بم » خرساء هذه المرة .. تصدعت عمارة فى نهاية الطريق .. توالت الانفجارات ممتزجة بالانهيار والهدد .. قفز الكلب الهزيل ، وفى لمحة كان يختفى فى المخبأ .. أحسست بوحدتى .. ازداد التصاق ظهرى المبتل بالعرق إلى بقايا جدار .. اقترب منى شابان طويلان .. شاحبان تنبعث منهما رائحة بترولية نفاذة ..

قال أحدهم .. : « الوقفة هنا خطر .. »

أردت أن أقول له أنني وجدت رفاق الموقع قد رحلوا إلى مكان آخر .

وقال الآخر ... « من مصر الصديقة ..

قلت أقدم لها نفسي .. : تبادل الشابان الطويلان الشاحبان ابتسامة ساخرة .. حاولت أن ابتسم لهما ، لكنهما أسرعا إلى المخبأ .. كان واضحا من ثيابهما أنهما من عمال صهاريج البترول فى الميناء .. يوم العودة الحزينة من سيناء تلقفنا العمال والأهالى وحملونا على أكتافهم وقدموا لنا الطعام والماء ..

— « المخبأ أكثر أمنا يا ولدى .. »

« تركز اهتمامى كله فى بضاعة الرجل . كنت ورفاقى نشترى منه السجائر ، لكنه لايتذكرنى ..

عاد يقول .. « العمر لا يضيع هدراً » .

ما أشهى السميط والبيض فى صندوقه الخشبى .. يئس الرجل .. ابتعدت عصاه وساقه الوحيدة ، فى إيقاع مضطرب .. كنا نشترى منه ثلاث سنوات ، وننصت إلى حكاياته عن النساء أيام الانجليز ..

قال رئيس التحرير .. « تسافر إلى السويس ..؟ » قال بعض الزملاء .. رحلة خطرة .. قلت فى نفسى « ربما جاء الخلاص . قلت « علنى أعوض فشلى فى دخول حديقة الحيوانات »

.. وضحكت .. قال :. : « أكتب وصيتك .. » قالت «ديدى» .. دامعة العينين « علام التشاؤم . . ستعود سالما » قلت مجاملا « تذهبين إلى أمك .. ؟ تمزقت الأعصاب بتساؤلات كثيرة .. .. حملت حقيبتى وقلت .. قد أسافر من السويس إلى رأس العش.. تبادلنا قبلة مرتبكة .

فى ثانية واحدة ، تناثرت العربة الكارو .. وأشلاء صاحبها على الأسفلت .. خارت قوى الحصان العجوز .. حمحم وسقط مذبوحا بجوار الأشلاء ..كانت بقايا أسفلت الطريق مليئة ببقع قاتمة .. مخلوطة بالتراب .. احتوتنى بقسوة ذكريات يوم « مثلا » كان زميلى فى الخندق يحدثنى عن مشروعه لافتتاح محل خياط للسيدات..ويقول أنه سيربح منه أموالا كثيرة ويتزوج و .. طارت رأسه فى ثانية وتبعثرت أحلامه :.

حدقت طويلا فى خيوط الدم :. تابعتها وهى تنساب متعرجة إلى حفر الطريق .. صدم أحد الخيوط الداكنة الساخنة بشاظية كبيرة .. تلفت حولى .. اقتربت من الحصان المذبوح .. رأيت اتساع عينيه .. انتفاضة جسده المبتل بالعرق والدم رفست قدماه الهزيلتان الهواء المثقل بالتراب ثم سكنت حركته .. التقطت الشاظية كانت حادة الأطراف .. مبتلة بالدم الساخن .. صنع زميلى فى الخندق هرما من الشظايا بقرب شط القناة .. وهتف ..: « أحلى من هرم خوفو .. هيه .. » ثم شاطه بقدمه بغيظ ..

ملأ التراب عينى .. لفنى الظلام فجأة .. انهار بيت قريب.. قفزت قطة كبيرة اصطدمت برأسى .. تجاوزتنى واختفت فى لمحة .. تبينت حطام عربة إسعاف غطى التراب صدأها أخذت أتأملها .. لابد أن « ديدى » الآن .. تخيط ثياب الولد .. المنتظر

خلف عربة الإسعاف وقفت أتبول ، ثم استدرت وجلست على مقدمتها المهشمة .. رأيت « هباب » الفرن فى بيت متهدم .. فكرت فى شراء سجائر .. اكتشفت أننى جائع .. تذكرت البائع الأعرج .. كانت الشاظية فى راحتى .. أصابعى تطبق عليها .. تناثر الغبار .. أغمضت عينى .. أعمانى تراب الجدار الذى سقط بدارنا .. ماتت الجدة بسببه .. سأحمل عدة شظايا « لديدى » تذكاراً لا ينسى .

فجأة خيل إلى أن أحداً يغنى .. فتحت عينى .. رأيت صبيا صغيراً يحجل أمامى ويغنى « بم بم بو .. بم بم بو .. » توقف الصبى وسأل : « ماما .. ماما .. أنت خايفه » .

كأنما الأشياء بداخلى تتلاصق .. جذبتنى براءة الطفل ..وقف أمامى لايخفى دهشته .. ابتسمت له .. ابتسم وضحك .. ثم نظر إلى أمه .. اهتزت الأرض تحتنا وتشقق جدار .. اتجهت سحابة دخان داكنة نحونا .. وجدتنى أحتضن الطفل وأمسك أمه بيدى .. سرنا كالحرس ..

فى ثانية .. صرخت المرأة وغطت عينيها بيدها .. وجحظت عينا ابنها وازداد انكماشه فى صدرى .. كان بائع الخبز على دراجته يندفع أمامنا .. تدحرج رأسه فجأة على الأسفلت وطرطشت الدماء الساخنة .. قبل أن أدرك ماحدث صدمت الدراجة بشريط السكة الحديد ، سقطت وبائع الخبز فوقها بلا رأس .. لاحظت أن يديه لم تفلتا .. « الجادون » .. فى الخندق ، مات على » وأصبعه على الزناد .. اكتشفنا موته عندما بدأنا فى إخلاء موقعنا .

« شيء فظيع .. » وصمتت كمن يتلوى مكتوما .. أردت أن أن أقول لها .. أننا فى مصيدة لكننى عجزت .. اكتفيت بأن هززت رأسى .. أضافت المرأة كلمة أو كلمتين لم أتبينهما .. لف الطفل ذراعيه حول عنقى .. وقال ..: « تصور .. لم نجد جدتى وأختى تحت الهدد .. » كانت ملامحه قريبة إلى حد كبير من الصورة التى ترسمها « ديدى » للولد « خالد » ..

انهار جدار كشف عن عنكبوت دورة المياه ، ثم غاب كل شيء فى التراب .. ربت على ظهر الولد مواسيا .. فسقطت رأسه على كتفى ونام .. قلت : « المخبأ .. ؟ »

لكنها رفضت الفكرة بهزة من رأسها ، واصلنا سيرنا ، شريط السكة الحديد يمتد بجوارنا بطول « الكورنيش » .. بور توفيق

على مرمى البصر . . كانت رائحة الاحتراق تزكم أنفى .. أظلتنا سحابة كثيفة السواد .. رأيت الشابين يهرولان أمامى :.

قلت : « الزيتية تحترق .. »

أردت أن أحكى لها عن أيامى فى بور توفيق والسويس ، لكننى صمت :.

لم يعد انهيار البيوت يدهشنى .. عبرنا شريط السكة الحديد اختفى الشابان فى اتجاه الميناء .. سألتنى : « من مصر ؟ »

قلت لها : « كنت هنا قبل خروجى إلى » الرديف ، ... وقد أرسلتنى المجلة لأكتب لها عن مدينة الحرب .. أردت أن أضيف أنهـا لاتهتم بغير نجوم الفن .. لكننى ابتلعت ذلك وابتسمت .. أضفت صادقا .. أجد معك الونس .. أمسكت ذراعى وتابعنا سيرنا .. تجاوزنا الهدد المحيط بجامع « سيدى الغريب » .. اقتربنا من القوارب المقلوبة على الشط .. لفنا الصمت .. رائحة الموت تملأ أنفى .. انفجرت الدانات قوية مخيفة هذه المرة .. ارتعشت والتصقت المرأة بى .. ضممت الطفل أكثر إلى صدرى .. ابنى « خالد » لن ينام إلا إذا دفن وجهه فى صدرى وسيصر على أن أحكى له حدوتة ست الحسن والجمال والشاطر حسن اللذين ذهبا للتنزه فى حديقة الحيوان راكبين جواداً أبيض :. وتركاه مربوطا بسورها .. وعندما عادا إليه وجداه قد سرق

فذهبا يشكوان الأمر إلى عسكرى البوليس .. خالد سيصر على أن العسكرى هاجم اللص بالصواريخ والطائرات وأعاد الحصان لست الحسن والشاطر حسن ..

سألتها عن اسمه ..

قالت .. « رأفت » ، توالت الفرقعة .. سألتها بالحاح : .. إلى المخبأ .. ؟

جذبتنى إلى القوارب المقلوبة .. زحفنا تحت أحدها .. تكومت على نفسى .. بذلت جهدى حتى لايصحو الطفل .. صافحت عيناى « الملاحات » .. تطلعت إلى أشباح بيوت بور توفيق البعيدة .. الوحيدة .. وتذكرت الشجرة المتفتحة التى طرحت وردة بيضاء بشكل مفاجىء هزنا جميعا فى الموقع وسط الخرائب والدمار ..

قالت : « خايف ..؟

قلت .. « أبدا » .

كان فى تجويف القارب شباك صيد مهملة .. وضعتها تحت رأس الطفل واستدرت لها ..

قالت .. « ضربوا الصهاريج » .. كانت مياه الخليج راكدة فوقها طبقة ممزقة من الزيت ومخلفات البواخر ..

ضممتها إلى صدرى ..

قلت .. « الحريق مروع .. انظرى »

نظرت فى عينى وابتسمت ..

قالت : « ربنا يستر .. ثم أضافت . سنريهم أننا نحتمل .. »

كانت ترتعش .. جسدها ينتفض .. كومت ساقيها ثم فردتهما ..

لم أكن قد رأيت وجهها بعد .. فى العشرين من عمرها ممتلئة الشفتين والصدر والردفين مصفرة الوجه .. أذابت الدموع كحل عينيها .. صار هالة سوداء بجوار خديها .. تبادلنا القبلات بسرعة محمومة ..

قلت .. « أشعر بأنى أعرفك منذ ألف سنة .. » نظرت فى عينى .. سرى الدفء قليلا فى أعماقى امتدت يدها تربت على وجهى .. ضاقت المسافة بيننا ..

قالت .. « بيضربوا من .. كبريت .. أو الشط .. »

كانت يدها فوق ذراعى ، ساقى كانت بجوار ساقها .. ابتسمت لها .. راودتنى رغبة فى أن أحكى لها قصة قرأتها عن حرب الهكسوس .. لكنها فاجأتنى بقولها :

— « على فكرة .. انت خايف .. »

قلت .. « جداً .. » ضحكت وجذبتنى أكثر إلى صدرها ..

قالت : : « ولدى لم يعد يخاف ولو كان صاحيا للعب لعبة
ال .: بم بم بو .:. »

قلت فى سرى .:. كذلك سيكون ولدنا خالد . . إذا جاء !

قالت : فى يونيو . . دخل تحت السرير فنهره أبوه ..
وضربه . : وصمتت فجأة :. غامت عيناها انشغلت برأفت .:
داعبت شعره :

تذكرت كل شىء عن لحظة اللقاء .. أردت أن أسألها عن
زوجها .. عن بيتها .. نظرت إليها .. خجلت من نفسى .. بررت
المسألة لنفسى :. كانت الرغبة متبادلة .. أخيراً قلت لها « البقاء
هنا مخاطرة .. »

قالت : . «كان متزوجا من امرأتين غيرى » ، رأت الدهشة
فى عينى .. ابتسمت وقالت : كان يحبنى .. ويخاف على . .
وهاجرنا كلنا .: لكنه عاد للبحر .:

وكان صياداً .. زارنى فى مديرية التحرير من ستة شهور..
بعدها انقطعت أخباره قلقت عليه وجئت لأبحث عنه ! .. »

توالت الانفجارات .. اشتد اهتزاز الأرض تحتنا .. التصقت
السيقان أكثر .. قبضت أصابعها على ذراعى .. وعوى كلب واندفع
تحت القارب .. صدم بى .. فأسرع إلى القارب المجاور .. ورفد
يلهث ، وعيناه تحدقان فى عينى دون خجل ..

تلاصقت ظلال القوارب المقلوبة .. امتزجت سحابات الدخان الكثيفة بظلام الغروب .. تنهدت المرأة .. غمغمت بصوت خافت.. تمنيت أن يكون لى أهل أو أقارب .. فكرت فى أشياء كثيرة أحكيها لها .. لكننى اكتفيت بالنظر إلى عينيها .. كانتا فى لون العسل الأسود المخلوط بالطحينية ..

قالت .. « وباع البيت أنقاضا .. وتركنى أنا ورأفت » .

انغرست أصابعها برفق فى شعورى .. احتوت رأسى براحتيها ربت على شعرها المتناثر فوق صدرها .. ابتلت أصابعى بالعرق بين نهديها .. فى شهر العسل أخذت ديدى إلى نزهة أخرى فى النيل .. بللنا أصابعنا بمائه المقدس .

قالت .. أنا أصلا من الصعيد . قلت وأنا كذلك من هناك .. وحكيت لها عن أضواء شوارع القاهرة اللامعة ، ونسائها الأنيقات وثيابهن القصيرة ..

قالت .. « فى المهجر باعت أختى نفسها .. بنصف جنيه » ، ولمعت الدموع فى عينيها « لم أضربها .. قلت لها .. أننى كنت أصلح منها لهذا الشاب الثرى فأخبرتنى أنها كانت جائعة بالفعل لأى رجل »

خفت الانفجارات .. لكن الدوى ظل يملأ أذنى .. تحول إلى طنين مخيف .. ازدادت رغبتى فى تدخين سيجارة ..

داعبت شعرها .. ربت بيدى على طفلها النائم فى حضنى وابتسمت .. قلت لها وإحساس بالأسى يغمرنى .. « فشلت عدة سنوات فى أن يكون لى طفل .. تصورى » وتضاحكنا .. بعد لحظة أحسست بطعم الصمت الذى يلفنا ..

قلت : إنها أول مرة أرى المدينة المهدمة منذ عامين أو ثلاثة ..

قالت أنها تشعر بالجوع .. ومسحت وجهى براحتها .. منذ أعوام زرت أمى فى القرية كانت أمام الفرن تسوى أرغفة الخبز .. انحنيت أقبل يدها المعروفة فاحتوتنى فى صدرها وتركت أثرا من الدقيق والعرق على قميصى ووجهى وشعرى .. قلت لها أننى سأتزوج .. وجئت أدعوكم .. فلطمت وجهها وبكت وقالت .. لاتقل لأبيك وإلا قتلك وقتلنى .

قالت وهى تنهض من تحت القارب .. سأشترى سندويتشات من شارع المحطة .. وسجائر ، قلت : أذهب أنا .. قد يضايقك الجنود .. قالت يمكننى أن أحضر منهم بعض الطعام .. بالتبادل.. ثم أضافت .. « خل بالك من الولد .. واختفت فى الظلام .. هزنى ذلك من الأعماق .. ذات ليلة خرجت زوجتى لشراء شىء للعشاء وضايقها أحد الشبان فتشاجرت معه .. وعادت ثائرة وقالت أنها ملت هذه الحياة .. وأصرت على وجود الدادة .. »

قلت فى نفسى سأحكى لها أشياء كثيرة عندما تعود.. لكن .. طال غيابها ، شعرت بالبرد يلسعنى .. قبلت الطفل ثم وضعت رأسه فوق كومة الشباك الممزقة فى جوف القارب المنكفىء وغطيته بقميصى ، أخافنى السكون المريب .. قلت للصبى النائم : أتعرف .. ثم رويت له شيئا من شقاوة ابنى خالد الذى طال انتظارنا له ، وزحفت من تحت القارب .. جلست بجواره ووضعت يدى على دفته الخشبية الصلبة .. لفتت نظرى شجرة مزهرة فى حديقة خربة .. لابد أنها نفس الشجرة .. كانت وحيدة متربة .. لكنها تبعث الإحساس بالحياة فى الخرائب المحيطة بها .. تذكرت مهمتى الصحفية .. قلت أن هذه الشجرة تصلح كبداية معقولة ، فكرت فى عشرات الغزوات التى ..

فى الظلام تناولنا العشاء وأوصلتها إلى موقف السيارات وقبلت ابنها رأفت .. وافترقنا ..

وفجأة تفتت الصمت .. واشتعل الظلام بلهب مدافعنا تقذف بشراهة من جبل « عتاقة .. » المرتفع فى شموخ جنوب السويس .. وتذكرت « ديدى » .. التى يجب أن أنجو بها من الفشل .. وبدأت أتعجل عودتى إليها ..

(٨)

انتهى الشتاء .. ومر الربيع دون أن أدرى . . وجاء الصيف شديد الحرارة .. ومع ذلك هرولت هابطا السلم ، الدور الثالث الثانى ، الأول ، آخر سلمة .. لفحتى حرارة الطريق، حاصرتنى الأشياء المعتادة ، صخب قطار حلوان فرملة، سيارة عند التقاطع القريب .. العيون المشدودة إلى الثياب القصيرة الرقيقة . .مسحت حبات العرق عن وجهى بظهر يدى . . زوجتى أصبحت كثيرة الشكوى هذه الأيام .. طويت المنديل المبلل فى قبضتى .. أشعلت سيجارة وسرت أدخنها على رصيف الشارع ، « قالت الصحف بلغت أمس درجة الحرارة ٤١ – درجة فى الظل » .

انفتح الميدان فجأة أمامى ، الزحام لا حد له .. أبعدت عينى رعبا عن جريدة تخفى وجها على الناصية .. فى المقهى نظرت إلى الداخل . . لم أر أحدا أعرفه .. طلبت شايا .. نقر ماسح الأحذية على صندوقه الخشبى .. ألح فى ذلك . . نهرته . . قال أنه منذ خمس

سنوات لم يسافر إلى أمه فى الصعيد وأنه يجمع ثمن التذكرة . . أخرجت ساقى من تحت المقعد ، تركت الحذاء له . .

صارحتنى « ديدى » أمس بأنها لم تعد تحتمل ، حاولت أن أبرر ذلك . . قلت لها أن « المرارة تؤلمنى . . وثمة قرحة فى المعدة . . وإن غددى مصابة بخلل » ضحكت ببساطة وقالت . . « قل أن البصل المخلل والبصارة أفسدت أمعاءك . . كانت أمى تدفن بلاص المش والجبن القديم فى قش الذرة فوق سطح الدار . . كان صديقى بالإعدادية يأتى ليذاكر معى من أجل هذا « المش المعتق » . . أعلن ذلك مراراً لأمى . كانت تبتسم له لأنه لا يخفى إعجابه بأختى . . ربما صار زوجا لها » .

أنهى الصبى تنظيف الحذاء بسرعة ، اكتشفت أنه كهل فى الثلاثين وليس صبيا كما توهمت . . عاد ينقر صندوقه بالفرشاة ، جاء الشاب الأسمر النحيل الطويل بردائه الأبيض ذى الحزام الأزرق اللامع بكوب الشاى وترك بجواره فاتورة الحساب . . زوجتى نسيت أنى أحب الشاى بالنعناع . . أشعلت سيجارة أخرى . . استدرت إلى الميدان، صدمت عيناى بالنصب الرخامى اللبنى . . لامعا كان فى صهد الشمس . . فرت عيناى إلى الساحة الواسعةالغاصة بالناسوالسيارات والسيقان العارية والأحذية المتحركة بقلق . بجانب جدار مبولة الميدان كانتجريدة أخرى تخفىوجها آخر

بقيت عشر دقائق على موعد صديق العمر . . صديقى كان يحلم بسيارة حمراء أنيقة .. وفتاة حلوة مثيرة ، وحافظة نقود من جلد الثعبان .

زميلتى فى العمل .. قالت إن لون ثيابى يوحى بالانقباض .. سألتنى عن سر ذلك فضحكت .. فى الواقع لم يكن هناك ما يحكى غير أننى أريدها .. قلت لها : زوجتى أصبحت فجأة تضيق بغسل ثيابى فاقتنيت ثيابا قاتمة .. ضحكت زميلتى الحسناء... مالت برأسها قليلا وقالت .. هل تدعونى إلى السينما ؟ .

اتسعت عيناى دهشة .. قالت : وما الغريب فى ذلك .. خطيبى هجرنى والوحدة تعذبنى .. هززت رأسى مدعيا فهم الأمر كله وأعطيتها سيجارة...أخذت تدخنها بشراهة .. قلت : نذهب للسينما غداً .. لأننى اليوم ذاهب لصديق العمر .. كان غائبا منذ زمن .. وهو يتعجل رؤيتى .. وأنا أيضاً ! ..

توهجت الشمس أكثر لابد أن الحرارة تجاوزت « ٤١ درجة » الآن .. عقارب ساعة الميدان تتحرك ببطء شديد .. بقيت تسع دقائق .. ابتل المنديل فى يدى .. العرق يبلل عنقى على الدوام .. أعلنت .. « ديدى » أمس أنها لا تعرف لماذا أفضل الشاى بارداً .. نسيت الكثير من طباعى .. « قالت أن الأشياء الباردة تفقد طعمها » . نسيت أننى أفضله بالنعناع .. قالت إن نعناع

العالم كله لن يكفى لتنظيف معدتى من آثار المش والبصل المخلل ضحكت وقلت لها إن مداعباتها تسعدنى بالفعل ، سوت شعرها وقبلتنى وهرولت إلى عملها قائلة أنها تحسدنى وأنها لا تعرف لماذا لم تعين معى فى هذه المجلة التى لا قيد فيها على المواعيد ، كانت معها « شلة خيط » ملون تصنع منها « بلوفر » للولد الذى طال انتظاره .

من يومين قالت لى .. إن مؤسسة الخدمة رشحتها لبعثة إلى « النوبة الجديدة » وأنها طلبت منهم أن أرافقها فى هذه الرحلة . سألتها مداعباً : « والولد خالد .. ؟ » .

تجهمت لحظة ثم تصنعت المرح وقالت « نرسله إلى جده » !

فى أول الشهر أرسلت إلى أبى بعض المال .. لكن رسائله ازدادت عنفا معى .. كان على أن أنتظر المكوجى — لأجد قميصا أذهب به إلى عملى — الصمت يلف الشقة بشكل مزعج .. دفعت دراجة « خالد » الصغيرة بقدمى .. انطلقت فى الصالة وصدمت بالجدار .. حاولت أن أركبها . « ديدى » تصر على بعثرة النقود على « اللعب » ..

دخلت الحمام .. فتحت الجريدة .. « لكى تعود الحياة الطبيعية إلى جبلاية القرود فى حديقة الحيوانات بالجيزة .. بعد

مذابح تكررت .. كان الأب فيها هو القاتل .. والوليد الابن هو المسفوك دمه .. سيتم استبعاد ١٨ قردا قتلت أولادها وعزلها وحدها من اليوم .. » والد ديدى ما زال يقاوم الموت ويرفض رؤيتنا .. وأبى يرفض زيارتنا له :

.. لسعتنى السيجارة . وعدتنى « أم رأفت » أن تزورنى إذا عادت إلى المهجر فى مديرية التحرير .. نسيت أن أمهد لزيارتها عند زوجتى .. عدت من السويس أكثر حزنا .. لا أستطيع أن أنسى ليلة القارب المنكفىء على الشط .

بعض الشبان على المنضدة المجاورة ينظرون إلى بريبة شديدة .. نظرت إلى الميدان .. النصب الرخامى ساكن تحت وهج الشمس بقيت سبع دقائق .. طلبت شايا آخر .. اعتذر الشاب النحيل الطويل بأنه لا يوجد لديهم نعناع ..

استغرقتنى الجريدة . . صفحة الحوادث مثيرة اليوم .. « هل قتلت الأم ابنتها بسبب الغيرة .. ؟ » شاب يحرق أخته والطبيب الشرعى يكذب ظنونه .. « طفلة تعترف على أبيها وتروى كيف شاهدته يحطم رأس أمها .. » « عاشق أحرق البيت ليخفى . . » بقية ص (١) : وتمكن قناص مصرى من اصطياد عدو من ذوى الرتب الكبيرة ، وسط الحشد المرافق له .. هذا وقد كوفىء المقاتل على ذلك .. »

زميلتى تصر على أن أدعوها إلى السينما .. سألتها : ولم .. ؟ قالت .. بدهشة بالغة .. « لأننى أرغب فى ذلك .. » ثم سألتنى « ألن تسافر زوجتك قريباً .. » قلت لها .. « ثقى أننى لا أصلح لك ، وأردت أن أحكى لها المحاولات المبذولة لإنجاب الولد خالد .. وفكرت أن أريها رسالة أبى الأخيرة .. « الناس أكلت وجهى فى المقهى والغيط والسوق .. يسألوننى .. هل صحيح إن ابنك تزوج .. ؟ لقد قصرت رقبتى فى البلد » ، قالت إنها ستترك لى تذكرتى على باب السينما .. « كان عدد القرود قد تضاعف فى الجبلاية .. خلال الـ ٥ سنوات الأخيرة ، وأصبح عدد الذكور ٣٨ والإناث ٤٠ ، مما يتنافى مع الحياة التى يعيشها القرود فى الطبيعة .. وقد أدى ذلك إلى ثورة القرود .. وكان من نتائجها إصابة ملك الجبلاية بفقد البصر .. هذا وقد قتل ٣٣ قرداً وليداً عمر كل منها لا يتعدى أسبوعاً .

طويت جريدتى .. طالعنى عنوانها .. « رواد أبوللو يقتربون من القمر .. الاحتمال كبير فى .. » سألتنى زميلتى .. « هه نذهب غداً إلى السينما .. ؟ » أردت أن أدفع يدى إلى صدرها .. كانت أنوثتها شديدة الإثارة .. شدنى جرس التليفون .. راودتنى رغبة فى أن أطلب أجازة لأنام .. رفعت سماعة التليفون .. جاءنى الصوت مهللا .. « أين أنت يا رجل ؟ »

كان يتحدث بصداقة غريبة ، كنت متعباً للغاية من رحلة السويس .. قلت : « أهلا .. » محاولتى المعتادة لكسب الوقت والاستنجاد بذاكرتى المرهقة .

عاد يهلل : « وحشتنى جداً يا حسام .. » .

أحاطنى بذراعيه ، تراجع رأسه إلى الوراء قليلا .. عاد يهتف :

« أنت حسام .. لم يتغير فيك شيء .. ها .. ها .. ها..» لاحظت لمعان أسنانه ، رائحته المريحة .. أخفى الشبان على المنضدة المجاورة قلقهم فى لعب الطاولة .. وجدتنى أبادله العناق .. جلس أخيراً .. منتشيا لسبب مجهول لى تماماً .. لو رأته أمى الآن ستندم كثيراً لأنه لم يتزوج من أختى .. واصل حكاياته ببال رائق .. تحدث الشبان عن معركة المدافع وخط بارليف ، جاء الجرسون ، التقطت المنديل بسرعة ومسحت به عنقى .. شعرت به خشنا مملحا .

اتصلت بزوجتى فى عملها قبل الظهر واستأذنتها فى دعوة صديق العمر إلى الغداء .. رفضت بنرفزة واضحة .. قلت لها

إن صديق العمر أصر على أن أقابله فى المقهى فى الثانية والنصف .. فأنهت المكالمة بثلاث كلمات .. « يعنى حتتغدى بره .. » .

قال .. « من كم سنة .. هه .. عشرة عشرون .. هه . ؟
قلت .. « عمر طويل .. »

ضحك .. وهو يتراجع برأسه للخلف وينظر إلى فى دهشة بالغة .. « تذكر بالطبع .. طبق المش والجبن القديم .. ها ها .. كيف حال الست الوالدة .. والست أختك » . « الحمد لله » قلتها وأنا أبحث فى عينيه عن شىء يطمئن .. كان ثلاثة من زملاء المدرسة قد اعتقلوا .. أعلن أحد المدرسين أن ثمة وشاية خسيسة حدثت .. حاصرت الشبهات صديق العمر .. ادعى أننى كنت أول من اتهمه بالخيانة .. لم يعد يحضر إلى دارنا .

أشعل سيجارته .. رشف بعض رشفات من زجاجته المثلجة
قلت .. « كيف الحال .. ؟ »

قال .. « أتمرف بعد البعثة الطويلة فى أوروبا .. ارجع لأجدهم هنا .. يكلفوننى بعمل تافه جداً » .

ابتسمت له .. وقلت مواسيا :

– « أنا أيضاً أقوم بعمل ممل جداً .. لكن .. هه .. لقمة العيش والأولاد يا صديق العمر .. »

نظر إلى بتعجب شديد .. لوى شفتيه متبرما .. ثم قال :

« لكنك لم تنجب بعد أليس كذلك . . ؟؟ » ذهلت .. عاد يقول : « لا تعرف كيف تألمت .. » داخلنى الاطمئنان قليلا .. هو لا شك يريد أن أنشر له مشكلته فى بريد القراء فى المجلة أو أن أسعى لدى رؤسائه لتحسين وضعه الوظيفى باعتباره دارسا فى الخارج ..

علقت : « مسألة هنية .. » أكملت تدخين سيجارتى ، نظر شبان المنضدة المجاورة إلينا بريبة ملحوظة .. قبع ماسح الأحذية فى ركن المقهى يدخن سيجارته « اللف » . كان العرق حول رقبتى يثيرنى .. زوجتى لم تعد تحتمل ، ازداد بيتى ضيقا ، ازداد هبوط سقف غرفة .. نتبادل النظرات الفزعة أثناء الشجار المتصل .. زميلتى مغرية بحق .. حكيت لى مرة أن « خطيبها » دفع بيده بين فخذيها فى ظلام دار السينما وأنها ذهبت معه إلى مسكنه لكن أمه لم تتركهما وحدهما .. قالت أنها أحست برجولة صديق والدها وهى فى العاشرة من عمرها ، كان يعلمها الموسيقى ، ويحتضنها كابنته .. ويعتصر ردفيها بأصابعه .

قال صديق العمر : « أنت تعرف مقدار حبى لك .. ؟ »
قلت : « ثمة بصل مخلل ومش بيننا » وضحكنا !

زميلتى قالت لى .. أنها تحب أن تعمل عارضة أزياء فى التليفزيون ..

قلت لها : ليس لى أصدقاء هناك . .

قالت : « نفكر فى الأمر بعد أن نذهب إلى السينما » أنهى صديق العمر زجاجته المثلجة . وأشعل سيجارة أخرى وعاد يهمس فى أذنى :

— « سهرت أمس أقلب فى الملفات التى كلفت ببحثها . . أرجوك .. أرجوك يا صديقى العزيز أن تصدقنى ... لقد تألمت جداً وأشفقت عليك .. »

— ماذا .. ؟

— « فكرت أن أتصل بك لكننى خشيت أن أزعجك .. قلت أرجىء الأمر إلى الصباح .. »

ضاعف الشبان المجاورون من صخب اللعب . . وكانوا يتصايحون . . يدقون قواشيط الطاولة بقلق ويقهقهون . .

.. « يتوقع أطباء الحديقة أن يعود الهدوء قريبا إلى جبلاية القرود .. وذلك عندما يصبح عدد سكانها عشرين قردا .. ، و ٤٠ قردة فقط .. فيأخذ كل قرد قردتين ؟ ..

انظر تعليق المحرر العلمى صفحة ١٧ ..

قال .. « تذكر بالطبع ما حدث .. كنا نلهو على شاطىء ترعة « أم شوشة » صعدنا شجرة التوت .. تدافعنا بالأيدى والأرجل » ، وضحك .

— « وأوقعتنى فى الترعة .. ووقفت تقهقه وأنا أغرق .. »

— « أنت تبالغ يارجل .. كان بها شبر ماء ..

نظرت إليه إلى عينيه ، صدمتنى حدتهما .. أردت أن أكتشف لونهما .. روعتنى قسوتهما ..

قال .. « أنا مشغول بأمرك .. » .

اهتز باب دارنا بعنف .. وصاح غفير الدرك مناديا أبى ، وأمره بالذهاب معه إلى نقطة البوليس .. خوض أبى فى الطين الذى يملأ حوش الدار .. توسل إليه أن يخفض صوته حتى لا يرعب العيال .. وسأله باسم الجيرة فى الدار والغيط عن سبب

ستدعائه لنقطة البوليس فى عز الليل والبرد .. رفض الغفير بمكر أن يريح أبى .. أسرعت أمى خلف أبى مذعورة.. نسيت أنه كان على وشك الزواج عليها منذ أسبوعين فقط .. جريت وراءها .. تساندنا حتى لا نقع فى الطين .. ضربوا أبى حتى زعق وهو لا يزعق إلا من الشديد القوى وفى الصباح قال له الضابط .. « إما أن تدفع الغرامة أو أحبسك .. » وقال الجيران وهم يجمعون من بعضهم قيمة الغرامة « إن أبى أخطأ لأنه باع حملا من برسيم أرض التفتيش ، أقسم لهم أبى بالطلاق أنه لم يأخذ غير حزمة صغيرة للخروف الذى نذره لأهل الله يوم أنجح وأنال الشهادة .. »

تنحنح صديق العمر .. قال وهو يشعل سيجارته :

أقول لك الصدق .. نظرت إلى صورتك فى الملف طويلا وقلت فى نفسى إنه إنسان آخر يشبهك .. لكن ملامحك .. عينيك .. أنفك .. شعرك .. لونك .. والدك .. الست الوالدة أخواتك .. السن .. الطول .. ملابس الشتاء التى اشتراها لك مدرس الخدمة الاجتماعية من صندوق الإعانات بالمدرسة .. »

أخذت أراقب الشبان المجاورين لنا .. كانوا منشغلين الآن بالتحديق فى الميدان ومناقشة مسألة هامة .. وهى أن كل

إشارات المرور تحول بينك وبين الوصول إلى المنصة الرخامية البنية اللون وسط الميدان .:

— « آسف يا صديقى .. لا أقصد .. لكن الملف لم يترك صغيرة أو كبيرة ، أتذكر وفاء .. كانت تقتسم معك سندويتشات البيض المسلوق والجمبرى هه ؟ » فى رحلة إلى بحيرة المنزلة جرينا كثيراً فى « جزيرة ابن سلام » وسبحنا حولها .. أكلنا سمكا مشويا عند الصيادين .. أخذت لنا وفاء صوراً تذكارية أعطتنى الكاميرا وعلمتنى كيف ألتقط لها صورة فى قطار العودة أجلسها صديقى على ساقيه وضمها إلى صدره شجعها الظلام على أن تستريح فى جلستها هذه .. مالت قليلا .. وأسندت رأسها إلى كتفه .. ظنا أننى نائم تبادلا قبلة طويلة انتهت برجفة أعرف طعمها فى فراشى كل ليلة .:

قال .. « وجدت حكايتك مع وفاء فى الملف أيضاً .. فازداد يقينى بأنه يخصك أنت بالذات .. لكن الأمر المحير حقا هو .. »

وصمت .. فأجبرنى على أن أعلق عينى بشفتيه .. ابتسم وقال « . . لقد كنت تحب وفاء . . كنت تعطيها كراسات الحساب .. » هززت رأسى .. انتابتنى رغبة شديدة فى البكاء

.: قال بحسم .. « لكن كيف وقفت تخطب فى الأنفار وعمال التفتيش عقب صلاة الجمعة .. وتحرضهم على الإضراب .. حتى يرفع والدها أجورهم .. ؟ »

— « شيخ الجامع ثار فى وجهى يومها وطردنى من المسجد .. وقال إن ذلك عصيان لأمر الله « ... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .. »

— « كنت تحقد على والدها لأنه زوجها من مفتش الصحة .. ولم تكن ثائرا من أجل العمال .. أليس كذلك .. ؟ »

ابتلعت ريقى بصعوبة . . شعرت بثقل لسانى . . قالت « حماتى » إن ابنتها منكوبة مثلها برجل لا لزوم له . . وقالت زوجتى إننى يجب أن أحسم الموضوع كله مع أبى وأمى . . لأنها لم تعد تحتمل ..

— لم أطلب يدها .. ولم أحقد على أبيها :: »

— « أظن أثر الجرح ما زال فى قدمك اليسرى .. ؟ »

— « أبدا .. كان فى يدى .. »

قال . . « معذرة . . لم أكن أقصد .. هى التى جلست على ساقى كما تعرف .. »

— « لكنك أوقعتنى فى الترعة .. »

— « لم أكن أقصد ، كنا نمرح .. هه .. »

قلت وأنا أحس ضياعا لا حد له .. « بالتأكيد لم تكن تقصد .. »

— « ربطت لك جرح أصبعك يومها .. »

— « لا .. لم تفعل .. »

— « بمنديلى ربطت لك الجرح .. »

— « أقصد .. لابد .. إننى نسيت .. معذرة .. »

.. انتصب الجرسون أمامى .. طويلا .. شاحبا .. ثوبه الأبيض يذكرنى بزملائه فى مأتم أحد أعيان القرية .. حزامه الأزرق غير نظيف كما توهمت .. فاتورة الحساب فى يده .. بحثت فى جيبى .. أخرجت له الثمن .. اكتشفت أننى لم أضع الحذاء فى قدمى بعد .. بحثت عنه بارتباك شديد .. تلفت حولى ، كان ماسح الأحذية يغط فى نومه بركن المقهى ..

نظرت إلى ساعتى .. لقد تأخرت بما فيه الكفاية .. لا شك أن زوجتى قد استيقظت من نوم بعد الظهر .. وقد نسيت تماماً أنها يجب أن تغسل غيارى الداخلى .. لأنها مشغولة بمولودنا الخالد ! ..

قلت لنفسى .. لابد أن أعتذر تليفونيا لصديق العمر .. سأقول له أننى كنت مرتبطاً بموعد .. فلم أتمكن من انتظاره أكثر من ذلك على مقهى الميدان.. تحاشيت النظر تماما إلى النصب الرخامى البنى اللون .. كانت الشمس تزداد التهابا .. وفى أقرب تليفون اتصلت بزميلتى وأبلغتها أننى قبلت دعوتها إلى السينما فورا ..

(٩)

بعد أيام قليلة ، كنت أهرب مرة أخرى من القاهرة .. ومن ديدى . . إلى الرمال .. والصمت .. ونبرة أسى .. « ياما زقزق الإمرى على ورق الليمون .. وضحك أحدهم ، عرفت فيما بعد أن اسمه .. « جوهر » وقال .. « آسف ياجماعة .. لا أذكر من الأغنية غير هذه الكلمات .. » وصمت :

حاولت أن أسجل ما أحسه من حب لهؤلاء الشبان فى وحدتهم هذه !..

اقترح أقدمهم .. « محمود » أن يروى لنا .. « منعم » قصته مع هوانم .. وفى ثانية كانوا يضحكون .. أغرتنى ضحكاتهم بأن أضحك .. وفى ثانية امتلأت عيناى بالدموع كعادتى كلما ضحكت..

نظر إلينا « منعم » متغاضبا .. سارع « محمود » وقدم له سيجارة.. أشعلها وجذب نفسا طويلا :. وقال :

« هجت هوانم من الدار ». بنت لها عشة صغيرة من الطوف — الطين المخلوط بالتبن والقش — على الطريق الزراعى .. لكن شيخ الجامع أعلن أنها كافرة وأحل حرق عشتها » وصمت .

قلت لنفسى :

— « كنت أظن أننى سأعيش الأسبوع المسموح لى به بين هؤلاء الرجال كئيبا حزينا .. لكن هاهم يتحدثون عن أشياء مثيرة .. كانوا مثل رفاق الموقع القديم .. يبحثون عن المرح ويثرثرون بأحلامهم .. والأهم أنهم سيكونون أبطال موضوع صحفى جديد أثبت به كفاءتى للسيد رئيس التحرير الذى ..

قال « منعم » فجأة : « النذل .. كان طامعا فى النتاية .. » فضحكنا ، أصبحت أضحك معهم فى نفس اللحظة. لو أن ديدى رأتنى الآن لصعقت من كثرة ضحكاتى .. ولأعلنت أننى أتعمد تعاستها !.. لعلها الآن تداعب طفلنا الموهوم !..

أزاح جوهر خوذته عن رأسه وقال :

« لتحكى لنا أنت يامحمود ..

مد « محمود » ساقيه .. علق أحد قدميه بنتوء فى الدشمة ..

وأسند صدره إلى ذراعه وأراح رأسه على مؤخرة مدفعه الرشاش.. قال :

– « كنت أحب البنت فاطمة من كل قلبي .. سهرت الليالى أكتب لها جوابات الغرام .. من أجلها حفظت رسائل الحب فى كتب المنفلوطى وعرفت البلد كلها بحبى لفاطمة .. فزوجها أبوها من ابن خالها » وصمت .

نظر الثلاثة إلى .. ارتجفت .. كنت قد وعدت زوجتى بأن أكف عن ذهابى إلى الجبهة .. لأنها كانت تكره وحدتها .. لكننى أكدت لها .. أن هذه المرة على جانب كبير من الأهمية .. لأننى بالفعل أريد أن أرى عنصرا آخر من الناس فى مكان أكثر أهمية.. ورفضت تأكيدى بأنى مكلف بذلك من المجلة .. لأكتب لها عن « رأس العش .. » قالت .. « أهم يريدون لك الموت لهذا الحد .. ؟ » ضحكت وقلت مداعبا .. « لا .. بالقطع .. » ثم قلت .. « سأذهب إذن مع نادية لطفى إلى بعض المواقع الأقل خطراً .. لأسجل زيارتها إلى المقاتلين .. » نظرت إلى بدهشة بالغة.. أعلنت أنها لم تعد تحتملنى » .. فكرت أن أحكى لها قصة رأفت وأمه الباحثة عن زوجها فى السويس .. ترددت .. أخفيت صورى مع أم رأفت وسط أكوام الهدد بداخلى .

سألتها .: متى تسافرين إلى النوبة :.

قالت : .. بعد شهر .. وافقوا على أن أصحبك معى .. قبلتها ممتنا وقلت أن هذه هى آخر مرة أتركها وحدها.. وأننى سأكتب تحقيقا صحفيا مثيراً هذه المرة وأننى سوف ..

حاصرتنى عيون الرجال .. شعرت أن فرصتى فى تأمل وجوههم التى لفحتها الشمس قد انتهت لكن رغبتى فى مصارحتهم مازالت تلح على رأسى بعنف قلت ..

– « .. كنت أظنكم أكثر جهامة وصرامة .. أخافنى هذا الظن عندما وافقت إدارة التوجيه المعنوى على أن أنزل ضيفا عليكم أسبوعا . صحيح أننى جندى قديم إلى حد ما .. لكن .

– « .. لاعليك ، إننا نعيد ماقلناه .. نحكى ما رويناه »

ثم أضاف .. : أم تراك نسيت فترة تجنيدك التى أخبرتنا بها . « قلت . موقعكم هنا يختلف عن موقعنا السابق .. كنا فى بر الأمان على أية حال .. » صمت ولم يعلق بشىء . رويت لهم شيئا أظنه طريفا ومضحكا :

كنت متأنقا فى ملابسى .. ادعيت لزوجتى أننى سأشترى

بعض الكتب الهامة .. فحصلت على جنيه كامل .. اتفقت مع قاطعة التذاكر على مقعدين فى موقع هادىء .. وقلت لها غامزاً بعينى .. « خطيبتى تكره الزحام والأعين الفضولية .. » ضحكت باستخفاف وأعطتنى التذكرتين .. زمان .. صحبت صديقتى « ليلى » إلى السينما .. لم أجد رغبة فى مداعبتها .. شدتنى أحداث الفيلم .. الطائرات كانت كالغربان تنهش قنابلها لحم النساء والأطفال .. والرعب يسود ويسيطر .. همست زميلتى فى أذنى .. « دمك ثقيل .. » أكتشفت أننى منتبه إلى لعبة هتشكوك أكثر من اللازم .. أطبقت على أصابعى بعنف .. مالت برأسها إلى كتفى .. زحفت يدى إلى صدرها ... فى الظلام اكتشفت أن العشاق أكثر مما كنت أتخيل .. سرت النشوة حتى أصابع قدمى .. تبادلنا ضغطة ابعنا متنان بأصا.

.. كنت أسجل بعض الانطباعات .. فى فجر اليوم التالى كانوا يقفون صفا واحداً ، خلف الدشمة .. « الملازم » يحوطهم بعينيه فى اهتمام . . وقامته الطويلة تنتصب أمامنا فى حيوية .. » قال لى .. « طالما أنت معنا .. فعليك بالضبط والربط .، انتباه ، فزعت واقفا ، انضممت إلى الصف .. قال :

— « موقفنا هنا .. كنقطة إنذار متقدمة .. يحتم علينا المزيد من

الحذر . . خفلنا كما تعلمون .. « رأس العش » والعدو لن يكف عن محاولة أخذها منا .. »

رفع .. « محمود » يده مستأذنا .. الملازم .. وقال .. « إننا هنا من أربعة أشهر وهم – كما يبدو – يريدون تحطيم أعصابنا .. »

قال الملازم : أنتم تشاهدون كل شيء بأنفسكم ..ماذانستطيع أن نفعل غير الانتظار ..؟

وصمت ثم انصرف إلى موقعه.. قالت زوجتي وأنا أودعها .. « ثق أنني لم أعد احتمل .. ستعود لتجدني قد هربت .. ذهبت في داهية .. قلت لها .. المزيد من الصبر يا أم « خالد » .. « حاولت أن أضحك لكنها كانت متجهمة.. لا أدرى السبب الحقيقي للسعادة التي غمرت زميلتي .. وهي تفكر معي في مكان ملائم نلتقي فيه .. في الخبز احترق الفرن وأنقذ الجيران دارنا بحلل المياه والحصر المبلولة ، وأنجدت ابنة الجيران أخي الرضيع من أمام الفرن . . قلت لها بعد ذلك بليلتين أنها تشبه هدى سلطان .. فقالت أنها تحلم بالذهاب ولو مرة إلى السينما في المركز ، دبرت معها ذلك لكنها غضبت مني عندما داعبتها .

قال الترانزستور .. أن « يارنج » أعلن أنه ...

أغلق « جوهر » الراديو .. ورقد صامتا خلف رشاشه .. أعطانى « محمود » المنظار لأتسلى ، ألصقته بعينى جيداً .. كانت نظارتى الطبية من النوع الجيد .. نسيت أن أجددها بعد أن كسرت فى الحملة ... أخذت أحدق فى رمال سيناء تذكرت لحظة الرعب والمذبحة ، والعطش ، والزحف فى الرمال .

قال « منعم » كانت هوانم تريد سقفا يلمها .. لكن زوج أختها فضحها .. »

وقال « محمود » .. ضربنى أبى لأنى تعرضت لزوج فاطمة يوم سبوعه » .

وقلت فى نفسى .. « كانت زوجتى — فى البداية — تنسج معى ذكريات دافئة .. »

.. وهناك خلف « الملاحات » رأيت « علم العدو » .. يهتز .. وفجأة كأنما ذلك لم يكن متوقعا .. ثار « جوهر » فى « منعم » قائلا بتأفف :

— « كفى يا أخى .. أليس فى الدنيا إلا .. « هوانم » و .. « فاطمة .. » وهذه الحكايات الفارغة » .

.. وتوارت الثياب القصيرة والسيقان العارية .. بللنى العرق ..

وشعرت بتفاهتى .. وقلت فى سرى أن « ديدى » معها حق .. وأننى أعذبها معى .. وأننى عاجز عن منحها الطفل .. وعندما أعود إليها سأحاول مرة أخرى أن ..

نبهنى .. « محمود . . « انتبه » عدت إلى المنظار كنت قد اتفقت معهم على أن أشارك فى المراقبة فقط .. بعد لحظة رأيت تحركات مريبة لقوات العدو . . أعطيت المنظار لمحمود .. وحاولت إخفاء خوفى . . رقدت ملتصقا بمنعم وجوهر » .. خلف الرشاشات .. أعطانى منعم رشاشه وأسرع يترجم كلمات « محمود . . » فى جهاز اللاسلكى ..

— « عربة نصف جنزير .. دبابة .. عربتا جيب » وفى ثانية كان الملازم بيننا .. طلب منى الانسحاب إلى المواقع الخلفية ، فكرت فى إنهاء زيارتى لهم .. خجلت .. تساءلت :

« أهو أمر .. ؟ » أردت أن أقول أن التقهقر يومها كان خطأ قاتلا .. لكنه انشغل عنى باصدار تعليماته للجنود .. استعد «جوهر» و « منعم » و « محمود » بمدافعهم ، حملت إليهم صناديق الذخيرة ، كنت ألهث .. بذلت جهداً كبيراً لأخفى خجلى من نفسى .

فى المساء . . أذاع الترانزستور « بيانا للمتحدث العسكرى » .. قال فيه أن قواتنا الباسلة فى رأس العش تصدت ظهر اليوم لمحاولة ثانية فاشلة من جانب العدو .. أغلق جوهر الراديو .. لفنا الصمت .. كان محمود جريحا أمامنا .

« خطر لى أن أفكر .. فى زوجتى .. هل تستمع الآن إلى الراديو وتعرف أننى هنا بين من تسمع عن بسالتهم ..؟ لكننى انشغلت بحمل « محمود » إلى نقطة الإسعاف .

أصبح « منعم » قائداً للجماعة .. بعد نقل « محمود » إلى المستشفى . . قال « جوهر » كان يسلينا بنكاته .. لكن هل تظن أنه سيعيش .. ؟

قلت .. « إصابته خفيفة » ، وصمت ..

كنا نعرف أنه أصيب فى صدره ونزف كثيراً من الدم .

.. بعد يومين . . زارنا شاب فى مثل سنى .. على ذراعه .. مثلى أيضاً شارة حمراء تقول أنه « مراسل حربى » .. تعارفنا .. هو مندوب إحدى الصحف اليومية .. قال لى أنه لم يكن ضروريا حضورى هنا .. لأعيش فى خطر .. وعلق باسما : « أنت مستجد فى المهنة .. » ثم نسينى تماما .. وقال للرجال :

« أريد أن أعرف شعوركم وأنتم تواجهون دبابات العدو .. »

نظرت إلى « جوهر .. » ونظرت إلى « منعم » ، وبعد لحظة قلت له ..

— « إننا سعداء بزيارتك لنا .. »

لم يخف دهشته .. وعاد يلح فى سؤال الرجال .. فجأة أعطاه « منعم » المنظار ، وقال له ..

— « انظر .. هناك .. خلف الملاحات .. إننا نرى هذه التمثيلية كل ساعة .. وفى كل ثانية نتوقع وننتظر .، وأحيانا نغنى أغنيات نسينا معظم كلماتها .. ونتبادل حكاياتنا المعادة .. »

أخيراً شكرهم المراسل الحربى .. وقبل أن يعود قال لى ناصحا .. « إذا أردت أن ترى المعارك لتكتب عنها فاذهب إلى ميادين التدريب » ومضى .. قبل أن أفهم منه ماذا يعنى بالضبط ..

قالت جدتى مرة .. « أمش سنه ولاتعدى قنه .. » فنهرها أبى وقال : هذا ماخسف بنا الأرض يا أمى .

قرأ منعم رسالة أبيه التى وصلته اليوم .. « إن محصول القطن هذا العام طيب ، واختك هدى ستزف إلى عريسها منصور ..

ولازم تحضر الفرح ..وأعرفك أن أخاك فتحى نجح فى القبول وكان الأول على المحافظة كلها .. ألف مبروك يامنعم .. لماذا لاتنزل أجازة لنراك ... »

أغلق منعم الرسالة . . وقال .. « الشيء الذى يحيرنى هو أن « هوانم » لم تعد تكتب لى خطابات بنت الـ .. عندما أنزل أجازة سأ ..

ضحك جوهر وقاطعه قائلا .. « يا أخى .: لن تخطفها الحدايات » ، قال « منعم » فى حزن شديد . . « أنت لاتعرف أخاها عطوه .. يغرى شيخ الجامع كل يوم بطواجن اللبن .. ويهديه بغربال جديد كلما سلخ جلد حمار ميت .. وياخراب بيتى أنا وهوانم . . قلت لها ألف مرة أن تترك له حقها فى التركة .: لكن دماغها ناشفة .. »

وضحك فى أسى ..

.. انشغلت بعمل الشاى .. تمنيت لو وجدت عود نعناع .. خشيت أن أفصح عن رغبتى هذه . . حتى لايسخر منى « منعم » « وجوهر » . . وزميلنا الجديد « عوض » .. كانت زوجتى زمان تعد لى الشاى بالنعناع حتى لاتضايقها رائحة السجائر .. فجأة شعرت بدفء شفتيها .. وتمنيت لو تطقطق لى عظام ظهرى .:

أقبل الملازم .. ارتبكنا .. كــدت أعتذر له .. لكنه جلس وقال :

ــ « كما كنت » ثم أضاف .. « إننى فى حاجة فعلا إلى كوب من الشاى » ثم قدم لنا علبة السجائر .. وقال .. « يجب ألا نفقد حذرنا .. مفهوم .. » قبل أن يتركنا قال أن الرقيب « محمود » قد رقى إلى رتبة أعلى ومنح وساما أيضاً لأنه كان شهيدا عظيما .. » ولفنا الوجوم .

الأيام تمر على وتيرة واحدة .. شاهدنا فى دار الأوبرا « أوبرا عايدة » أحبتنى زوجتى أكثر ليلتها .. صرت أناديها « عايدة » « ملاك سماوى » .. تلك هى أغنية رداميس لمحبوبته الحبشية .. قالت زوجتى : يطمئن الإنسان عندما يجد لاسمه معنى ما .. » وضحكنا .. لكن حلمها بالولد أفسد على فرحة تلك الليلة .

سألتنى زميلتى .. « متى تسافر زوجتك .. ؟ » قلت لها « ذلك شيء صعب .. » وافترقنا أمام دار السينما .

« فى اليوم التالى .. جاءت إلى مكتبى .. وقالت .. لا » أحب أن تكون كاذبا .. أنا أريدك .. وأنت تريد ذلك لكنك جبان ! .. »

.. فكرت فى العودة .. قال الرجال « زهقت » .. قال « منعم » .. سلى نفسك بتمثيلية كل يوم .، وضعت المنظار على عينى جيدا .. رأيت علم العدو خلف الملاحات وحركة جنوده المعادة .. ثم رقص وغناء ..، أخذنى أمس « الملازم » لأشهد التحقيق مع أحد الأسرى .. سمعته يقول أن زميلاته اللائى كن بالموقع لحظة اختطافه .. من فرقة الترفيه .. هناك « موميسات » للترفيه فقط .

.. بعض السواح وصلوا اليوم إلى شاطىء القناة الشرقى .. كنا نضحك فى الأقصر براحة بال .. سهر زميلى المصرر مع سائحة حتى الصباح وقال أنه التقط فيلما ملونا لكل الأوضاع .. وعدنى بأن أرى ذلك بعد تحميض الفيلم :

أدار « جوهر » وجهه بغيظ إلينا :: « أترون » ..

لكن « جوهر » أدار مدفعه الرشاش ناحية السياح فأمره « منعم » :

قال « منعم » اهدأ :

ـ « كما كنت » :

واصل « جوهر » إعداد مدفعه لإطلاق النار على السياح الذين صحبهم بعض ضباط العدو .. أمره « منعم » :

— « جندى جوهر » .. كما كنت ..

ظل « عوض » ينظر إلى المشهد فى صمت . .

— « ألا ترى .. » قالها « جوهر » بغيظ شديد :

قلت له .. « إنهم بعيدون عن مرمى مدفعك » .

قال « سأزحف لأقترب منهم .. »

صاح منعم .. « قلت لك كما كنت » .. لكن « جوهر » بدأ يزحف بمدفعه صوب السياح .. فأسرع منعم إليه وجذبه من ذراعه وفى لحظة اشتبكا فى عراك مميت .. اطبق كل منهما على عنق الآخر .. بدآ يلهثان بعنف .. دفع عوض بجسمه .. بينهما .. نالته عدة لكمات ، جذبت « جوهر » بعيدا .. انفلت منى وأخذ يضرب رأسه فى صخر الدشمة .. « عند الساقية تعارك أبى مع جارنا « أبو جلهوم » لرى الأرض قبل الجفاف .. جرح كل منهما رأس الآخر .. جلسا عند طرف الساقية .. كانت رأس كل منهما منكسة وحبات العرق تتدحرج على وجهيهما اللذين أحالتهما الكآبة إلى وجهين براوين ، فجأة بكى جوهر .. قام إليه منعم .. ربت على ظهره وقبله .. وجلسنا صامتين .

قال « جوهر » بعد وقت « أنهم يوغلون فى جسدى أنا . . لم أعد أحتمل » .

« زوجتى . . الملاك السماوى . . قالتها فى إصرار . . لن تجدنى عندما تعود . . لم أعد أحتمل . . سأجن » .

وحملت لنا الرياح طرفا من غناء ومرح خلف الملاحات . . ولفنا صمت ثقيل أخذت أرسم خطوطا ودوائر ملتوية فى الرمال .

. . فجأة هزنا النبأ . . رفع « منعم » دون حذر — صوت « الترانزستور » والمذيع يكمل . . « وقد غرقت المدمرة إيلات فور إصابتها فى مياهنا الإقليمية » .

هلل « منعم » زغردى يا هوانم . .

وقال « جوهر » سيفقد العدو صوابه . . وعلق « عوض » . . « لقد جاء دورنا . . »

. . كان أبى يحب أن أقرأ له سيرة « أبو زيد الهلالى ودياب والزناتى خليفة » ، فى الكتاب الأصفر ذى الرائحة النفاذة . . وكنت أحب عزيزة ويونس . . كنت أرويها لجارتنا « هناء » فى طريقنا إلى أرض التفتيش .

.. فى الليلة التالية حاصرتنا نيران العدو .. وامتلأت السماء فوقنا بالدخان الأسود .. شعرت للحظة بالندم لبقائى .

قال أبى .. « من يقتل مرة .. ينسى الخوف .. وكان أبو عطيه يشرب من دماء خصومه .. الذين يعتدون على قريتنا ويسرقون المواشى أو يحرقون الزرع .. أقسمت « هناء » لى مرة أنها رأت « أبو عطية » يأكل قلب ذئب عند خالتها التى كانت تحبه » .

رأيت جوهر شاحبا .. ومنعم قاتم اللون .. وعوض يحمل صناديق الذخيرة .. انشغلت بمساعدته .. ضربنى خولى التفتيش مرة « بالفرقلة » .. سألتنى « هناء » أتخاف منه .. وحكت لى أنه عرض عليها زيادة يوميتها إذا ذهبت إليه فى مخازن التبن ليلا.

بعد لحظة .. كان منعم يفتح جهاز الاتصال ليبلغ « أنهم يقتربون .. »

أغلق الجهاز .. التقت نظراتنا ، ذكرنى وجهه بوجه أبى يوم أكلت الدودة زرعة القطن قال :

— « انتباه .. »

قال الملازم .. « الرقيب محمود أخذ دبابتهم فى حضه ..

لم يخف .. سنوقع العدو فى « كماشة » نتركه يمر منا .. ثم نغلق الطريق عليه .. »

ولفنا الصمت .. كانت لحظة مخيفة .. تلك التى عشتها أغالب نفسى وأنا أرى دبابة العدو تمر على الشريط الضيق أمامى .. خمسون متراً فقط تفصلنا عنها .. وفى لحظة .. تذكرت زوجتى .. وحلمها بالولد « خالد » ولعبه الصغيرة تملأ كل الغرف .. من أسبوعين اشترت « ديدى » سريراً هزازاً لينام فيه الولد المنتظر ! ..

كنت أضغط أسنانى حتى لا يسمع العدو صوت تنفسى .. يريدون « رأس العش » ، ومن بعدها .. بور فؤاد .. و .. فجأة انزاح رماد كثير عن ذاكرتى عندما تركنا كل شىء وجرينا من متلا ، لامنى أبى .. « أبو زيد ما ترك سيفه أبدا .. »

قال « جوهر » إذا تقدمنا .. غطنا بالرشاش ..

وقال « منعم » اسمع إذا أنا انقتلت . . عدنى أنك ستكتب إلى هوانم .. »

ربت على كتفه مشجعا بأصابع مرتجفة . . رقد الملازم بجوارى .. سحب « عوض » صندوق الذخيرة إلى جواره ، وقال « جوهر » بحزم :

— « غطونا بالرشاشات .. »

وانطلق مع « منعم » يزحفان .. تجاه دبابة العدو ..

على مسافة مترين منى كان الملازم يوجه مدفعه المضاد إلى هدفه .. كان على أن أضغط الزناد .. دون أن أهتم بما سيحدث لى . . كل التفاصيل الصغيرة تلاشت فى بقعة سوداء مخيفة . . إنها مسألة حياة ..

وصلتنى تحذيرات « الملازم » متأخرة ثانية واحدة لكنه تمكن من ربط ذراعى بمنديله ، سخر أبى منى لأننى طلبت منه أن يبيع الدار ويهاجر إلى القاهرة ، زمان قلت له : « نترك التفتيش ونهاجر » ضربنى بعنف . . وقال وهو يرتعش خوفا . . « لو سمع الرجال كلامى .. فهى ضربة فأس وينتهى كل شىء .. »

كانت زوجتى فى شهر العسل تغنى لى ببال رائق .. ياخولى الجنينة . . كنت أتمحك بأى شىء لاتأخر عن الأنفار لكى أرى فخذى هناء وهى تدعك كعبها بحجر فى جريف الترعة .

كانت أصابع « منعم » مغروسة فى الرمال . . كجذر نخلة دارنا الطويلة .. وكان « جوهر » ممسكا — ما زال بقنبلة يدوية . . جمدت أسنانه على صمام أمنها .

« ضربة فأس وينتهى كل شىء » . . اختلطت أمامى المشاهد . . رجال البوليس يسوقون أبى ورفاقه الأنفار . . إلى دوار التفتيش . . عيون أبى تلومنى على معاكستى لهناء فى غيط الذرة . . الجدار . . الهدد . . النظارة الطبية التى انكسرت . . صديق العمر الذى تركنى مرتابا على المقهى . . وفاء وضفائرها الصغيرة زميلتى فى العمل . . ليلى التى أنكرت أن ابن الجيران هتك عرضها فى بئر السلم ذات يوم ، زوجتى . . ونفاد صبرها . . زحام الموت فى الممر . . وعودتى متورم الأقدام وصوت منعم بعيد . . بعيد . . « إذا قتلت فاكتب إلى هوانم » .

. . عندما حملت الإسعاف الشهيدين . . بكى عوض وبكى « الملازم » . . شعرت برغبة شديدة فى البكاء على صدر أبى . . جلست أكتب فى دفترى مسودة رسالة منعم إلى « هوانم » . . « قل لها أن تزغرد . . لا تنسى هذا . . »

– تمام يا منعم ! .

– تمام يا جوهر ! .

ليتنى ذهبت معكما واسترحت من هـذا العذاب الذى لا يحتمل ! . .

: . وحملت أوراقى : . وعدت من هناك : : وقلت لنفسى

– سأحكى لديدى شيئا عظيما هذه المرة : . وستنفعل معى . : وتكتب بنفسها رسائل إلى « هوانم » : . و . . فتحت الباب وأنا أنادى بحب . . رغم عذابى : ديدى : : ديدى ! . .

لكن . : لكنها لم ترد !

(١٠)

كل ما كان هناك ورقة صغيرة تحمل هذه الكلمات «...اعذرنى يا حسام لم أجد وسيلة أخرى غير العودة إلى أمى وأبى . . أرجو أن تتصل بعملى لتطلب لى أجازة..لا يهم إذا فضلت عدم الاتصال. تحياتى لك . .

ملحوظة ، وجدتها فى آخر الورقة : « أرجو أن تجد الفرصة لإعادة علاقتك بأسرتك . . آسفة .. فقد قرأت رسائل أبيك كلها . لم أكن أقصد ذلك . . لقد تسببت لك فى عذاب طويل .. كان يجب أن أرد الجميل وأقف إلى جوارك لكننى لاحظت هروبك هذه الأيام منى .. تسافر كثيرا . . تسهر خارج البيت .. تهذى ليلا باسماء صديقاتك . . حياتنا لم تعد تحتمل .. معذرة. ربما يحل ابتعادى عنك كل المشاكل . . »

« زوجتك عايدة »
١٩٧٠/٣/٥

جلست على حافة الفراش . . الدوار يلف كل شيء حولى .. أشعلت سيجارتى .. تعلقت عيناى بصورتها على جدار الغرفة . كيف استطاعت أن تبعد عنى ؟.. إننى لا أطيق الحياة لحظة بدونها، إنها الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى حياتى .. ما زالت الحياة كما هى فى الشارع . الرديوهات تتنافس بالأغنيات فى المحلات والبيوت . الناس يبدون وكأن شيئا لم يحدث .. كيف .. كيف ؟ .

انتابنى إحساس قاتل بأننى وحيد .. يتيم . لم يحدث من قبل أن رحلت ديدى هكذا ..

فى مرة ضربتها بقسوة . حاصرتها فى ركن المطبخ وظللت أصفعها بجنون لأنها تسببت فى انقطاع العلاقات مع أسرتى . لم تبك .. لم تصرخ .. كل ما حدث يومها أنها خرجت .. لم أعرف أين ذهبت . فى اللحظة التالية هرولت إلى الطريق . سألت الأطفال أشار أحدهم إلى الحقول القريبة من البيت ، هناك وجدتها جالسة على أحد الجسور .. تبكى فى حزن شديد .. اعتذرت لها وأنا أفرك بعض تراب الحقل بأصبعى..حكيت لها بعض ذكرياتى فى غيط أبى وأرض التفتيش .. ضحكت .. تصافينا . عدنا معا إلى البيت ، وجددنا عزمنا على إنجاب الولد « خالد » .

لكنها الآن عند أمها وأبيها هل ستعود معى إذا ذهبت إليها ،

لا أعرف . . إننى فى حاجة إلى بعض الوقت أتدبر الأمور : . علنى أعرف رأسى من قدمى .

صحوت متعبا . تذكرت كل ما حدث . ازداد ألمى كثافة . اليوم عيد ميلادى . . كيف نسيت عايدة ذلك .

حاولت أن أتصورها فى دار أبيها ... لا شك أنها حزينة كئيبة هذه عادتها كلما ضاقت بها الدنيا .

خرجت من الشقة .. نزلت إلى شوارع القاهرة دهش بعض الزملاء على المقهى وقال أحدهم « ألم تمت بعد » وضحكوا وقال آخر احكى ما رأيته فى سيناء وسخر آخر وسألنى : هل « رأس العش » ما زالت معنا حقا ؟ .. لكننى لم أضحك . .

.. أحدهم اقترب منى وأبدى دهشته . سألنى : « تشرب شيئا منعشا ؟ »

طلبت زجاجة بيرة ... كنت فى حاجة إلى اتخاذ قرار ..

فى مرة أصرت أمى على أن تذهب إلى دار أهلها بعد أن تشاجرت معها جدتى .. ضربهما أبى بعنف وقوة . فسكتتا نهائيا ، لكنهما لم يتصافيا أبداً . .

شربت زجاجة البيرة .. طلبت غيرها . « لم تقل لى » كيف الحال هناك » .

لم أقل لهم أن زميلتى الحسناء قالت أننى سأجدها إذا فكرت فى ذلك . بحثت عن رقم التليفون فى أوراقى .. لم أجده .. شربت زجاجة ثالثة .. وقلت بمرح مفاجىء : «طظ» اعترتنى الكآبة . . فعدت لأنام .. لكننى لم أنم !

رنت دقات الساعة وكان الراديو وحده فى الشقة ، بدا كل شىء ضئيلا . ازدادت الغرف اتساعا . ساعتان فقط . كنت أظن أن أسبوعا على الأقل قد مر ، لم أنم إذن غير دقائق . . الليل شديد البرودة .. وضعت يدى فى جيبى البنطلون وخرجت، توقفت أمام إشارات المرور . قلت فى نفسى .. يجب أن أذهب إلى مكتب التلغراف ، سيزعجها التلغراف .. أبى ينتفض إذا وصلته برقية . . وتصيح أمى « خير يا رب .. »

فى مرة أصبت بالحمى ، حملت أمى قطعة من ثيابى « أثر » إلى الشيخ « أبو حلاوة » صنع لى حجابا وقال أن عملا معمولا لى وضع فى بطن سمكة دفنت فى مقبرة القرية . ذهب أبى إلى مقبرة الأسرة وحفر طول الليل ولم يجد شيئا . أشاع البعض أن

أبي قد حدث لعقله شيء .. قال أبي أن رقبته قصرت فى القرية ، وأن الألسن تسلخ جلده أينما ذهب « ابنك تزوج وعصى أمرك . وتقول أنك تريد أن تزوجه كيف ؟ » . صديق العمر رفض أن يتزوج من أختى الكبيرة فظلت غاضبة منى « وأبو خيوه » فسخ خطبته لها وقال أن زملاءه بالبلدية يعيرونه بى . . »

لابد أن الجنون يسود .. ما هذا ! .

كتبت برقية إلى زوجتى .. شطبتها عشر مرات . ماذا أقول لها « عودى من فضلك » أم . . « فى انتظارك لتعدى لى قهوة الصباح بيديك . . » لا . هذا كلام سيثير سخريتها إنها تحملت الكثير . كان الحصار شديدا على أعصابها . . أجلت الأمر إلى الصباح .

تجولت فى الغرف الصامتة . . أضأت كل الأنوار . . توقفت أمام صورة للقارب الذى كنا به فى رحلة شهر العسل فى النيل . . « غمسنا أصابعنا فى الماء وتبادلنا تعويذة السعادة والخصوبة...هذه صورتنا فى حديقة الحيوانات . . أزرار البلوزة مفتوحة أكثر من اللازم ، تكشف جزءا من صدرها ..

ذات يوم جلست أكتب قصة حبنا . . فشلت وضحكت ،

قلت لها إننى عاجز عن الكتابة .. قالت . حبك لى يقل . داعبتها قائلا : أبدا . إن حبنا يشعرنى دائما بالعدل . .

لكن كيف يعرف الآخرون أسرارنا ، ضحكنا — وجلست تعد فنجان قهوة على « السبرتو » ..

أوقدت شمعة من لعب «الولد» خالد وضعتها أمامى وجلست وحيدا . . صدى صوتها « عيد ميلاد سعيد » ينبعث من قلبى وعقلى .. هزت رأسها برشاقة وامتدت تسوى شعرها .. وقطعت « التورتة » وأطعمتنى بيدها ، انتفض جسدى كله . . خيل إلى أننى سمعت « خالد » ينادينى لا بد أنه مريض الآن . . ينتفض فزعا وأمه تضع له الكمادات الباردة . بللت منديلى وضعته على جبهتى . أشعلت سيجارتى . امتلأت باحساس شديد المرارة .

أدرت قرص التليفون . سمعت صوتها .. مليئا بأنوثة مذهلة . قلت . هل أراك الآن . .

قالت : ألا تعرف . . سألتها : ماذا يا زميلتى الحسناء . . ماذا ؟ ! . .

— قدمت استقالتى من المجلة . .

— اهه ؟ كيف .. ؟ » .

امتدت ضحكاتها زمنا طويلا . قالت أخيرا : « أعمل الآن عارضة أزياء . أصبحت موضوعا مثيرا لمجلتكم ... هه . ! »

قلت معتذرا : « غبت فى الجبهة أسبوعا . لم أذهب للعمل بعد . هل أهنئك ؟ . . »

« إيه ده . » ثم أضافت : لم لا تأتى الآن ؟

لابد أنها تتلوى الآن فى فراشها . قالت لى أنها ترى نفسها الآن جيدا . صُدرها وردفيها فى المرآة . . وأنها عارية تماما .. اعترفت لى مرة أنها وافقت على عرض أحد المصورين وجعلته يلتقط لها فيلما سينمائيا قصيرا عن كل الأوضاع ليبيعه لأحد زبائنه فى الخارج وأنها قد أخذت مقابل ذلك ألف جنيه .. أخذ خطيبها النصف .. قبل أن يهجرها ويشى بها لدى النقابة التى رفضت عضويتها و .. و .. و ..

سألتها : — كيف تركك خطيبك ؟ ..

قالت : سأحكى لك عندما تأتى . سأعد لك شرابا وطعاما .. هيا .. لا تتأخر .

كانت جارتنا « هناء » تجمع القطن معنا .. جلست بين الخطوط .. رأيت بياض فخذيها . مسحت وجهى بطاقيتى التى

كانت أمي تتعارك مع الخياط اذا لم يصنعها من نفس قماش الجلباب لكن أبى لاحظ ضحكاتنا ونهرنا . كان صديق العمر يضم زميلتنا « وفاء » إلى صدره .. ضفيرتاها اهتزتا من شدة نشوتها .. وحركات مؤخرتها على ساقيه بشبق ظاهر .

هتفت زميلتى مهللة : لابد أنك جائع . ثم سخرت من أحزانى

– « ما فائدة كل هذا ؟ .

وقدمت لى كأسا .. وقبلة .. وقالت :

– هيه . لم تقل لى .. هل تشتاق إلى وأخرجت صوتا مثيرا من حلقها ، وأعادت ملء كأسينا ..

قلت : لقد غضبت زوجتى وهجرت البيت .

ضحكت باستخفاف . وقالت : أصبح لى بيت كما ترى .. لم تقل لى .. هل يعجبك .. ؟

قلت .. أقسم أبى أنه سيطلق أمى إذا ..

قالت زميلتى : طلقها .. إنها تستطيع بدونك أن تعيش سعيدة .

قلت لكننى فى حاجة إليها .

أحضرت زجاجة أخرى وقالت :

تحرر ياغبى . أنطلق . اعرف الدنيا .

قلت : وبيتى ؟ .

لكنها تثاءبت .. وأخذت تحكى لى عن حياتها كعارضة أزياء .

وتثاءبت أنا أيضا وانتهت الليلة بشكل فاتر .

وفى الصباح الباكر . سرت مسرعا إلى المقطم . أخذت معى كتاب « أوبرا عايدة » .. لأكمل قراءته مع زوجتى تذكرت فجأة أننى لم أتصل بعملها لأطلب لها أجازة . سأعتذر لها عن ذلك . .

. . سأقول لها أنها تركتنى احتفل بعيد ميلادى وحدى وأننى غاضب منها كثيرا لهذا السبب وحده . سأقول لها أن أسرتى

ستنهى كل المشاكل معنا إذا سافرت معى إليهم . . تذكرت فجأة رحلتها المنتظرة إلى النوبة الجديدة لا أعرف هل اتخذت الإجراءات اللازمة أم لا ؟ .

تاهت عيناى بين الرمال والصخور . . . وازداد إحساسى بالتعب . وقفت فوق المقطم وأخذت أحدق فى بيت حبيبتى ديدى . .

(١١)

كنا فى أواخر مارس . . تكاثفت سحابات قاتمة فجأة حول شمس الظهيرة . كنت متعبا للغاية . . فكرت أن أحكى لها عن لحظات الجنون التى سقطت فى براثنها . . عندما اكتشفت غيابها . . لكنها قالت :

ـ « أفكر فى الانفصال . . »

تبادلنا نظرة قلقة . .

قلت : « أفكر فى السفر . . أنت وأنا . إلى أبى وأمى » . . نظرت إلى ـ كانت ـ عيناها بلون العسل . . قبلتهما . . وظلت هى صامتة . .

أشعلت سيجارة وأضفت :

ـ سيحبانك كثيرا : فقط يجب أن تعطيهما الفرصة ليعرفاك .

هه . ما رأيك ؟ . . ظلت فى صمتها .

كانت دائما تقول : « أحلم بأن يكونا لى أبا وأما . . كنا فى بداية حياتنا معا ، وكنت أعانق عينيها بامتنان قلت : نسافر بعد يومين . . ما رأيك ؟ . .

هزت رأسها بعصبية وقالت : « كنت وحيدة فى الشقة الضيقة . . أتعبنى الانتظار . . »

هززت رأسى . نسيت أن أعاتبها . .

قلت : « لقد أحضرت لك كتاب « أوبرا عايدة » لم تفرح كما توقعت ولم تغن بنشوة – كما كانت تفعل . . – عائدة ملاك سماوى . . ولم تضحك ، وهطلت أمطار مارس المفاجئة » .

وركبنا القطار إلى سوهاج :..

. . تمتعنا بحمام شمس على شاطىء بحيرة الموتى فى معبد أبيدوس : كان الحارس فاره الطول باسم الوجه ، شعرنا بالعطش قال أنه ذاهب لاحضار ماء . اختفى فى ردهات المعبد المظلمة الفسيحة : تعانقت أصابعنا وتبادلنا الاعجاب بألوان النحات القديم فوق الجدار . . شدتنا لوحة القنص والصيد – وتضاجعنا على أريكة

الحارس المغطاة بحرام من صوف الأغنام . لفتنا ريح معبقة بأنفاس إيزيس وإزوريس ..

قلت لها : رحلة لن تنسى . أجد متعة شديدة فى الهروب من القاهرة . .

قالت : متى نتزوج . . أمى تقول أنك طيب القلب .

قلت : إننا فى شهر العسل الآن . . للمرة الرابعة .

ضحكنا بمرح شديد .

تركت الكتاب بجوارى . . « فى أحد جوانب البهو تنتصب صفوف من الأعمدة الضخمة ، تزين مدخل المعبد « رمفيس » كبير الكهنة يدلى بحديث خطير إلى « رداميس » الضابط الشاب الوسيم . . إنه يبلغه أن تقريرا ورد إليه يحمل بين طياته أن الأحباش قد عادوا يهاجمون وادى النيل المقدس . . وأن إيزيس قد أشارت باختيارك . . أنت يا رداميس « أيها الجندى الشجاع » ، لتقود الجيش المصرى فى المعركة » . .

***

فى البداية . قال أبى أنه لا جدوى من هذا الكلام الفارغ « تبعثر نقودى على الكتب وتعمى عينيك باللمبة نمرة « ١١ » ،

قلت له بحماس شديد : : أن هذه الأوراق تساعدنى على أن أعرف : . ضحكت أمى وقالت ، ربنا يعطيك طول العمر .» وقال أبى « لو أنك كنت ترزيا أو نجارا لساعدتنى وأدخلت الكهرباء إلى الدار : : مثل الجيران كلهم . . »

قلت لها : فكرة رائعة ما رأيك .نتعاون معه فى دفع تكاليف انارة الدار . . »

قالت : « ونشترى ثيابا جديدة لهم . . الشتاء قادم ببرده الشديد » .

قلت فى نفسى . . لن أدعها تحطم ما تبقى لنا . . ناغشتها بيدى لكنها ظلت متجهمة قلت لها : « عايدة . . أشهر أوبرات فردى الإيطالى . . »

قالت ساخرة : « يبدو أننى مدينة بالكثير للامبراطورة أوجينى . . »

علقت مداعبا : ولطيش الخديوى أيضا . . !

انشغلت عنى بمداعبة شعرها فترة ، ووضعت حبات عقدها الأزرق بين شفتيها ، ضغطت حبة منه بأسنانها .

قلت : أتذكرين ، كنا معا هناك . . واستمعنا الى أغنية

ردامیس : « عایده ملاك سماوى » وهللنا فى مرح . . قالت : احترقت دار الأوبرا ألا تعرف ؟ . .

فى المعبد ، تعلقت عيناى بلوحة « سيت » منتشيا على مائدة المؤامرة :

قالت : « أرأيت كيف كان ردامیس رائعا فى حبه للأسيرة الحسناء ؟ لقد اختارها برغبته ولم يتخل عنها رغم المخاطرة . . »

نظرت إليها بعتاب . أشعلت سيجارتى . . قلت : « أتعرفين وأنا فى السويس خطر لى أن جدك وجدى تزاملا فى حفر القناة . . »

أخذت سيجارة من علبتى . . أشعلتها . جذبت نفسا منها . . سعلت . . أطفأتها بارتباك شديد ، قالت بعصبية : — « على فكرة . . أنت تفهم التاريخ بطريقة مليودرامية جدا . » ضحكت سألتها : هل فقدت ثقتك بى إلى هذا الحد ؟ . . شوحت بيدها . . وقالت بنفاد صبر :

— « أووه لقد حاولت أن أفهمك » . . وأخرجت الترانزستور من الحقيبة ، بجوار السرير . . أدارت المؤشر إلى محطة الموسيقى . أصغت باهتمام . . طرقعت بأناملها فى توتر ... اهتزت قدمها فى

عنف . . تردد صدى الموسيقى فى المكان . . « كانت قاعات المعبد أكثر استجابة للموسيقى فى رحلة شهر العسل . . طوحت شعرها الطويل . . فبدت كجنية حسناء ، وجذبتنى إلى الرقص ؟ . » أطل والدها علينا غاضبا ثم اختفى . .

قالت زميلتى : « بجوارنا سكنت امرأة مهاجرة . . كانت تقيم حفلات الرقص فى شقتها... أخى راقص ابنتها وراقصها هى كثيرا . . بررت هى ذلك بأنه ضرورة . ثارت أمى وجاراتنا . .

قلت « فى زمن الحرب يحدث مثل هذا عادة » شوحت فى وجهى بنفاد صبر . .

سألتنى زوجتى فجأة « أربع سنوات . . ألا تكفى . . أريد الولد خالد ؟! . . »

وجدتنى أضحك .. لم تشاركنى ، ازداد إحساسى بالأسى . . ولفنا الصمت من جديد وحمات إلينا أمطار مارس موجة أخرى من الكآبة ، قالت : لو أن الولد جاء . .

قلت لأبى فى آخر زيارة : لقد آن لك أن تفهمنى . . إننا لم نتحدث معا من قبل أبدا كأصدقاء . . أنا أصغر منك بعشرين سنة على الأقل ؟ . وابنى سيكون أصغر منى بعشرين سنة أيضا . . والفارق هنا هام جدا . . إنك لا تفكر مثل جدى . . وأختى

لا يمكن أن يكون تفكيرها مثل تفكير أمي . . وهكذا . لابد أن يفكر كل منا بطريقة مختلفة . . »

يومها شوح بيده المعروقة وقال : « أنت ولد فاسد . . جلبت لنا العار » . .

قلت له « من حقى أن أختار الإنسانة المناسبة » . .

زام بأمى وقال : « لم يفعلها أحد من قبلك فى القرية . . »

عدت أسألها : « ستسافرين معى . . أليس كذلك . . »

قالت « وجودى سيحرج أسرتك . . »

قلت : المسألة تخص ولدنا أيضا . . ، قالت « كدت أنسى . . المؤسسة حددت موعد سفرى إلى النوبة الجديدة أول الشهر القادم . . »

قلت سنسافر معا . . المهم أن نذهب إلى أبى أولا .

نكست رأسها لحظة قالت فى شرود : مؤسستنا تهتم كثيرا بهؤلاء الناس . . قلت : فهم المجتمعات القديمة ، يفيد فى هذا العصر . .

قالت . . « لا أتصور أن أفقدك لكنك لا تهتم » .

لفنا الصمت طويلا . . أخيرا قلت . . « أتعرفين . . أنها أول

مرة منذ سنوات نتحدث كأصدقاء ، وهذه بداية طيبة . . » علقت ، وهى تشعل سيجارتى « كانت أحلامنا كثيرة . . لكنها تبعثرت »

قلت : « كنت صمام الأمان . . على الدوام وسيظل حبنا هو زورق النجاة لنا » ، قالت : لكنهم يثقبونه بإصرار . .

كانت فى الأمسيات الحالمة تقول : « سأقرأ لك الفنجان . . »
وكنا نضحك وكانت تهز الفنجان بأناملها ثم تضعه مقلوبا فوق الطبق . . وتضع ساقا على أخرى فيبدو ثوبها غاية فى القصر . . وكانت أمها ترش الملح حولنا . وتضع بعضه فى موقد النار . .

قالت بحدة « إن ما تقوله عن الاختيار والحرية ، إنما هو مجرد كلام فقط » .

دهشت . كنت يومذاك أحدثها عن أحلامى بالنسبة لولدنا القادم ، لكنه لم يولد بعد . قالت « ستكون مثل أبيك وتريدنى أنا مثل أمك . . »

قلت : « إننا ببساطة نتجاهل الأسباب الحقيقية . .

ظلت متجهمة فأضفت ممازحا « وبذلك نصبح ضحايا . . . »

قالت : « ألن تكف عن المراوغة » .

أخرستنى المفاجأة . أضافت : لقد فعلت الكثير لأحتملك . .

أمس قلت لزميلتى : لم تخبرينى بعد : كيف فرط فيك خطيبك .

قالت وهى ترفع بطنها لتلتصق بى أكثر . . : لم أكن أحبه ذلك الحب الخرافى الذى نقرأ عنه فى الكتب . .

ثم أضافت بعد وقت : « مللت نصائح أمى قلت لها هذا فغضبت . . صرخت فيها أن أبى أيضا كان مع جارتنا فى الصيف الماضى . . ضحكت زميلتى وقالت : إنهما منافقان . . ومع ذلك أرسلا أمس يطلبان بعض المال وقالا أن ذلك واجب على يجب أن أفعله لأنهما ربيانى قبل أن أنحرف وأعمل عارضة أزياء ! .

قالت زوجتى : لقد كذبت على كثيرا . .

قلت : ألاحظ ميلك للارهاب والإذلال . . انسى الماضى ودعينا نجرب . .

أضافت : وهم أيضا لن يتركونا نعيش فى سلام . .

قلت : أتذكرين أننى دعوتهم يوم الزفاف . . ؟

قالت : إننى ضحية تخلفكم البغيض . .

قلت : وأنا كذلك . . إنها عقلية القبيلة . . وتأكلها من الداخل . .

ملأنى الملل : وكانت عايدة تموت شوقا إلى بلادها . حاولت

إغراء « رادميس » بالهرب معها من طيبة . لكن الكهنة عجلوا بالمحاكمة . .

هلل الأطفال للأمطار . . ظلوا يتصايحون وقتا طويلا . . خرجنا من الحجرة المعتمة . تمددنا متجاورين فوق أرض المعبد .

سألتنى – هل تحبنى حقا ؟ أم تراك أردت الفوز بشىء . .

قلت لها : إننا تزوجنا منذ أربعة أعوام . . وهى مدة كافية لأن تعرفى . .

ضحكت ساخرة . . وقالت « كنت تقول أن حبنا يشعرك بالعدل . . » ثم قهقهت ودفنت وجهها فى يديها وبكت . .

تحركت السحب القاتمة نحو الجنوب . . مددت يدى للرذاذ المتناثر حولنا . نظرت إلى السحاب . قضمت عودا من قش الذرة . . تزاحمت الرؤى فى رأسى .. كنت ذات يوم طويلا . . نحيفا.. كنت أبكى رعبا كلما ضرب ناظر التفتيش أبى وكلما ضرب أبى أمى . . ملأنى الشعور بالمهانة وجدتنى أصفع صديق العمر . . وزميلتنا وفاء لعبثها ولعنت والدها الجشع فى ساحة الجامع ودخلت حديقة الحيوان دون أن أخاف وقلت ازميلتى فى العمل إنها مقززة ومبتذلة وجائعة تبحث عن الرجل الذى يشبعها ، وصرخت فى وجه زميلى وقلت له إنه لا بد من علاقة

من نوع ما تشدنا إلى بعضنا .. وقلت لديدى : يجب أن نواجه أبى بحبنا .. بزواجنا ..

قالت زوجتى : أنت تخاف منه ، وملأت حياتى يأسا بخوفك ورعبك .

ومرت زفة من البنات والنسوة والعيال فى الحارة خلف أم تحمل عرضا من القماش الأبيض المبقع بالدم يعلن شرف ابنتها التى تزوجت أمس .. وتجاوبت أصداء الزغاريد فى الصحراء المحيطة بمعبد أبيدوس ، أو العرابة المدفونة .. فى صحراء سوهاج ..

قالت : لن أذهب إلى أهلك .

قلت : المواجهة حل مشرف .

قالت : ليس قبل أن نطمئن أولا على بيتنا . إن طيشك سيطيح بكل شىء .

قلت : لا تبالغى فى أوهامك يا ديدى ..

قالت : كنت طفل أسرتك المدلل . أليس كذلك ؟

قلت : وقد استهوتنى اللعبة — وأبى يعتبرنى زرعة عمره .. ولا يريد أن تأكلنى الدودة .

زمت شفتيها .. لكنها فشلت فى إخفاء ابتسامتها فضحكت :

احتويت أصابعها براحتى .. وقلت لها :

— أتعرفين ، إننى عطشان إلى كثير من الحب ..

دهشت دهشة بالغة وقالت : إن اغترابك عن أبويك هز أعصابك بشكل واضح . .

قالت : والولد الذى سيملأ حياتنا بالسعادة .. أنسيته ؟ ..

قلت لا أستطيع الانكار ..

ثم سألتنى :

— أتظن أنهم سيرحبون بنا ..

قلت : علينا أن نثق بهم ..

قالت : أظن أن « خالد » لو كان قد جاء فإنه كان سيحل المشكلة .

قلت : كان سيساعدنا كثيراً على اجتياز الخطر بدون شك .

قالت : أتذكر .. هنا قضينا شهر العسل الأول من أربع سنوات ..

وتعانقنا وهمست لها : ألا تريدين شقيقا أو شقيقة لخالد . . ؟
فاحمر وجهها وقالت : المهم أن يأتى هو أولا .

كنت أرى فى عينيها وبين أصابعنا المتشابكة مشهداً مثيراً .. ثمة امرأة تنثر الحبوب فى الخطوط المستقيمة الطويلة التى يشقها زوجها بمحراثه . كانت لها ملامح أمى وأبى . وكان « خالد » بين إخوتى ، كانوا يمرحون على مدى الرؤية مع بعض الطيور . وعلى حافة المشهد كله كانت المياه تندفع من النيل إلى الأرض فى سرعة .. وعلى الشاطىء كنا نغمس أصابعنا فيها – كانت مليئة بالدفء والخصوبة ..

فاجأتنى بقولها : إننى خائفة ..

قلت : يجب أن نجرب مرة أخرى ..

***

تركنا المعبد القديم خلفنا ..

. . وحضنت أصابعها . . كانت ترتجف . . ولكننا ركبنا القطار من سوهاج .. وحملنا معنا حب شهور العسل الأربعة ، إلى بيت أبى فى شمال الدلتا . . وكنت أحاول أن أصف لديدى الاستقبال الحافل .. قلت :

– سيقف أبى يتلقى العزاء فى وفاتى .. ويجبرنى على الوقوف بجواره .. وإذا طلبت غفرانه وحبه ، سيقول لى « ياولد .. أنا لم آت من الصعيد إلى الفلاحين لكى أعيش فى الفضائح »

.. تصورى .. هل حبنا وزواجنا فضيحة ؟ ! .

سألتنى ديدى بفزع : وأنا ؟

قلت : سيضعونك فى غرفة المعاش .. لتأكلك الفئران . .

شحب لون ديدى وسألتنى :

– لكن زواجنا شرعى ! . .

قلت : كرامتهم هم . . أهم يا ديدى . . لقد تزوجت دون موافقتهم ! . .

قالت : اسمع . . أنت تريد خالد . . وتريد شقيقة له . .

قلت : وإذا قرروا أن ننفصل ؟ ! .

قالت : نحمل حزمة البوص على أكتافنا ونجدف فى النيل .. ونجبر إله الحق « بتاح » على مباركة حبنا ..

وضحكت ديدى بحب .. وثقة واضحة ..

.. كانت طفلة كبيرة ، حلوة ، حالمة ، أنستنى قسوة الغربة فى المدينة .. ولذلك لن أتخلى عنها أبدا ..

قالت ديدى : لاتجبن أمامهم . تماسك .. أنا معك ..

قلت : ظننت أنك تلعنين اليوم الذى ..

قبلتنى وقالت : تضاعف شوقى للولد خالد .. آن لنا أن ننجبه ..

قبلتها .. وقلت :

ــ معك حق .. لكننا سنقوم بهذه المهمة المقدسة فى عقر دار العائلة !..

وتعانقت أصابعنا فى شوق .. وحكيت لديدى ، أن وجه أمى سيتورم حتما هذه الليلة .. فهذه عادة أبى ، فكلما أغضبته بتصرفاتى ، ينزل كل همه فوق رأس أمى ..

قالت ديدى : سأقبل رأسها ويديها .. وأناديها يا أمى ..

قلت : وستأخذك فى حضنها .. وتدمع عيناها من الفرحة . وسأذهب أنا إلى أبى .. لأبشره بحفيده القادم .. ولن يخفى دهشته ، وربما رشح ابنة خالتى لازواج من أحد فرسان العائلة .

و .. توقف القطار .. وسرت رعشة فى أيدينا .. وزاد خوفنا من المجهول .، لكن ، أنا وديدى ، كنا دائماً .. ومهما حدث .. لانفقد الثقة فى حبنا .

فجأة قالت ديدى : ابننا خالد لابد أن يكون شجاعا ..

ضحكت وقلت : ضرورى .. لأن أبى يهتم جداً بالسلالات القوية ..

وتبادلنا قبلة سريعة ، لكنها أثارت غضب الذين شاهدونا على رصيف المحطة .. قذفونا ببعض الأحجار ..

« صرخت عانس القرية فى وجهى ووجه ديدى فذاع نبأ وصولنا فى كل البيوت .. ومن حارة لأخرى .. كان عدد المتفرجين والشامتين والغاضبين يتزايد .. لكننا لم نتوقف .. كان لا مفر أمامنا غير قبول هذا التحدى .. والاتجاه نحو بيت العائلة ، حيث كان الأب والأم يقفان الآن على باب الدار ..

(١٢)

داخل الدار . . هبت عواصف الغضب . . وتجمع الجيران على صياح أبى . . وبكاء أمى . . كانت الكلمات واللعنات تنطلق بعنف وشراسة . . تمزقنى . . تمزق ديدى . . إمتزج ما يحدث لنا الآن بما حدث لى ولزملائى فى مذبحة ممر متلا الوحشية . .

قال أبى أخيراً وهو ينزف ألما :

— عشت فى العار مرتين بسبب طيشك . . أول مرة لما رجعت حافيا مرعوبا بعد فضيحتكم فى سيناء . . ويومها كان العزاء أنك كنت مغلوبا على أمرك . . لكن آخرتها تخرج عن طوعى وتعصى أمرى وتتزوج على هواك . . وتفضحنى فى البلد كلها . .

قلت : يا أبى . . أرجوك أفهمنى . . لابد أن تفهمنى . .

صاح أبى : اخفض صوتك يا ولد . . والزم أدبك . .

قلت . . وأنا أقاوم خوفا طاغياً :

- يا أبي لابد أن تعرف كل شيء .. أنني أواجه كارثة مخيفة .. سبع سنوات مريرة وأنا أبحث عن نفسي .. أفتش عن أحلامي الممزقة .. وأشلائي المبعثرة مثل أشلاء أوزوريس في ربوع الوادي .. بعد أن فتكت به الخيانة واغتاله الغدر .؟

صاح أبي : واآسفاه .. علمتك لتكون رجلا محترما أباهي بك أهل البلد .. لكنك فسدت وأكلتك الدودة ..

.. ونظر هو وأمي إلى عايده بغضب واحتقار ..

قلت : عايده حبيبتي وزوجتي وبيتي .. بيتي الذي أهرب إليه من شقاء الغربة وأشباح الهزيمة ومرارة الفشل .. أنها كبريائي الذي أحاول انتشاله من براثن الغدر المستمر .. وحبها لي يقويني .. يملأني بالشجاعة .. يدعوني إلى أن أحتمل هذا الزمن الذي لا يطاق .. لقد تحدت والدها .. ورفضت زوجا محملا بالفلوس والجاه .. واختارتني .. كما اخترتها أنا .. وهذا حقنا .. أبسط حقوقنا أن نختار وأن نحب ..

صاحت أمي فجأة : هي اختارتك .. كيف ؟ ! .. هي فاجرة .. وعلمتك الفجور يا ولدي ..

شهقت ديدي بفزع وسألت دموعها .. وترنحت فأسندتها بذراعي .. ودعوتها للاحتمال .. قالت : شيء لا يحتمل ولا يطاق ..

قلت فى غضب : يا أمى .: يا أبى .. زماننا غير زمانكم ..

صرخت أمى وقالت : زمانكم مطين يا فاجر أنت وهى . .

اتبلعت غضبى ومرارتى .: وسألتهما :

ــ ما هى جريمتى ؟ . .

قال أبى : خرجت عن طوعى . . وخسفت بى الأرض أمام أهل البلد . .

وقالت أمى : فضحتنا . . ودست على كلامى برجليك وقصرت رقبتى أمام أختى بعد أن خطبت ابنتها لك . . وأوقفت حال اخوتك البنات . . وأنت وهذه الفاجرة السبب فى فسخ خطبة اختك وهروب عريسها أبو خيوه . .

قلت فى توسل : جئنا نعتذر . . ونطلب العفو ونرجو المغفرة . . فأنا وديدى لم نكن نعرف أن حبنا وزواجنا سيجر عليكم وعلينا كل هذه المصائب . .

قالت أمى : قلبى غاضب عليك ليوم القيامة . . أنت وهذه الفاجرة . .

وقال أبى : وأنا برىء منك .. لا أنت ابنى ولا أنا أبوك ..

صحت فى ضيق : لماذا ؟! . . لماذا هذا التعنت والاذلال ..

صفعنى أبى بعنف . . ودفعنى نحو الباب . . أنا وديدى . . وهو يقول :

ــ أخرجا من دارى . .

شحب وجه ديدى . . ترنحت وانخبطت فى الحائط . . وصاحت :

ــ لا . . طلقونى منه . . طلقونى . . سأعود إلى أهلى . . لكن لا تطردوا حسام . . أنه ابنكم . . وهو فى حاجة إليكم

قاطعتها أمى بضراوة : ضيعتى أملنا فى الولد . . ولوثت سيرته وسيرتنا فى البلد . .

قلت بمرارة : أمى . . أتوسل إليك . . كفى . . كفى . . زوجتى لا تستحق كل هذا منك . . أنها أنسانة محترمة . . من أسرة بسيطة مثلنا . . كانت زميلتى فى الجامعة . . وهى الآن موظفة محترمة . . إخصائية إجتماعية . . أنها ليست من الشارع . . وليست فاجرة . .

قال أبى : انكتم يا ولد . . وخذ فضيحتك وأنصرف قبل أن ادفنكما بالحيا فى حوش الدار . .

ابتلعت ديدى الإهانة . . مرة أخرى . . بشجاعة نادرة . . وقاومت ما يبدو عليها من ضعف وخوف وإهتزاز . . وقالت :

أنتم لا تعرفون مأساة الاغتراب على إنسان ريفى حساس مثل إبنكم حسام . . إن الريفى العادى يتعرض للتمزق النفسى عندما يهاجر من القرية إلى المدينة وهو يظن أنه سيحقق النجاح والثراء والهناء بعيداً عن القرية .. لكنه يفشل فى التأقلم . . يصدم .. وتمزق الصدمة .. أما إذا كان إنساناً حساسا مثل إبنكم فإن الصدمة تدمره من الداخل . إنه يتأزم لأقل سبب .. وقد هرب إلى حبى وتزوجنى ليهرب من عزلته فى المدينة .. ليداوى جراح الإغتراب ويعالج صدمة الهزيمة الرهيبة فى سيناء .. إنه جندى فقد كبرياءه وزملاءه الجنود تمزقوا أشلاء حوله فى ممر « متلا » .. فأغرق نفسه وأغرقنى فى ضباب وعذاب متصل . . وصار يهرب إلى سيناء بحثاً عن الشىء الغالى المفقود .. واستغل عمله كصحفى واستمر فى الهروب إلى أماكن كثيرة .. وكل مرة كان يعود أكثر إنطواء واضطرابا ولم يكن أمامنا حل آخر غير العودة للجذور الأصلية .. إليكم .. فهو مريض ممزق وأنتم علاجه .. فخذوه .. أرجوكم خذوا إبنكم .. وطلقونى منه .. إذا كنت أنا السبب فى رفضكم له .. طلقونى . . ولا تطردوه . . فهو – مثلى – فى حاجه إليكم .. ليستعيد توازنه ..

انهارت عايده فاقدة الوعى . . فقد شلت مقاومتها وتعبت إرادتها ، وهرب منها قلبها ، و .. صرخت أنا فى رعب : ديدى.. تحملى يا بنت .. أمى وأبى ليسا بهذه القسوة . . إنهما يحبانك . .

سيحبانك . . سيعرفان أنك بنت أصول . . وعظيمة .. فقط أفيقى..
إنهضى أرجوك ..

بح صوتى وتمزق قلبى ، وأنا أرى ديدى تنهار وجسدها يترهل ويثقل على ذراعى فوق صدرى ، والعرق يسيل غزيراً على جسدها .. وأنفاسها تتلاشى ونبضها يضعف ..يضعف ..فصرخت.

النجدة يا أمى .. أنقذها يا أبى .. ديدى تموت ..

أحضرت أمى بصلة وكسرتها وأخذت تدلك أنف ديدى ووجهها .. ولكن بلا فائدة . . كانت ديدى فى كل لحظة تهرب منى .. تنسل من بين يدى .. وصارت كلها شاحبه .. شاحبه .. ثم ظهر علامات زرقاء داكنه حول عينها .. و ..

امتدت ذراعا أبى السمراوتين المعروقتين ، وحمل ديدى إلى صدره فى أبوه .. وبكى وهو يقول :

— كنت سأسامحك يا بنت ..وسأقول لك أنك بكلامك كبرت فى عينى وأحرجتينى مع نفسى وأنك أصيلة ومحترمه وبنت ناس.. لكنك هشة .. ضعفانه .. أفيقى يا عايده .. أفيقى يا ابنتى فأنت عندى فى « غلاوة » حسام وأكثر ..

لكن ديدى كانت تواصل تسربها من بيننا .. كانت أنفاسها تزداد ضعفاً .. و ..

صرخت أخواتى البنات فى ذعر وفزع .. وهرولت أختى الكبيرة لتنادى تومرجى البلدة .. وصاحت أمى تطلب من أختى الثانية البحث عن الدكتور فى بيته أو فى المقهى أو تحت طقاطيق الأرض ..

ظل أبى يدلل ديدى وهو يحملها على ذراعين ويهدهدها وكأنها طفلة وليدة .. وسالت دموعه وهو يقول :

— أنت إخصائية اجتماعية .. لكنك لا تعرفين طباعنا . . إننا نهب ونغضب .. لكن قلوبنا ليست من حجر .. هل صدقت إننى أطردك وأطرد حسام من دارى .. « يا عبيطة .. دا من شدة ضيقى .. » .. وأنت لا تعرفين ما جرى لى فى عمرى الطويل خمسين سنة أنا ملطشة لمن يساوى ومن لا يساوى .. الجميع يجرجونى ويحرمونى من حقوقى .. بدون سبب .. حتى الحكومة فضحتنا وهزمتنا مع أولادنا فى سينا من سبع سنين دون سبب ، بكيفها.. ومدير الجمعية الزراعية يسرقنى بكيفه .. وخطيب بنتى رجع فى كلامه ورفض الزواج .. بكيفه . . وحتى إبنى حسام . . تزوج بكيفه .. ونسيتم كلكم أننى أب .. أب ومجروح .. يا غجر .. وإنى عايش فى نار تأكلنى ليل نهار .. إننى رجل لا يملك من مال الدنيا غير كرامته .. هه .. فهمت يا أبنتى .. فهمت يا ديدى .. أفيقى إذن وسأحكى لك عما جرى لنا فى هذا الزمن الكافر . .

.. توقف أبي فجأة .. خنقه البكاء وفتح جفن عينها .. فرأينا عيني ديدى تتحولان إلى البياض .. و ..

زعق أبي .. وصرخت أمي ..

وأحضر جارنا جراره الزراعى ، وفرشوا كمية من القش وفوقها ثوب أمى وأرقدنا ديدى .. وانطلق الجرار بسرعة وضجيج إلى مستشفى البلدة ..

وفى صراحة رهيبة ، قال الطبيب .. المريضة مصابة بذبحة خطيرة .. ليست عندى أية إمكانيات .. لابد من نقلها فوراً إلى مستشفى بالعاصمة .. فوراً ..

وفى سيارة الأسعاف .. جلست بين أبي وأمى حول ديدى.. والرعب يشلنا .. وأخيراً انهرت على ركبتى بجوارها واحتضنت يديها وهمست لها بكل أشواق وعذابات العمر ..

– افيقى يانن عينى وحبة قلبى .. تماسكى .. واحتملى .. ولاتغضبى من أبي وأمى .. فقد أصابهما ما أصابنى وأصابك .. كلنا ضحايا العار الذى لوث حياتنا . ولهذا نعذب أنفسنا .. ننهش أرواحنا .. نتبادل الغضب والقسوة لأننا فى قرف من تخلفنا .. من ضعفنا ونريد أن ننصهر وننقذ أنفسنا من الجحيم الذى نعيشه .. فأفيقى .. خذى نبضى وعمرى وأفيقى ..

سيارة الأسعاف تنطلق وتهتز .. وأمى وأبى يبكيان ويضرعان إلى الله ليشفى ديدى ..

وفجأة .. اهتزت سيارة الأسعاف بعنف ودوت فرقعات مخيفة .. ومرت فوقنا طائرات حربية .. وتوقف « الأسعاف » لحظات أمام كشك الشرطة العسكرية .. فصرخت :

— أتوسل إليكم دعونا نسرع .. زوجتى تموت .. تموت ..

عادت سيارة الأسعاف إلى الانطلاق .. دون أن ألاحظ اضطراب الحياة من حولنا.. فقط لفت أنظارى الزائعة كثره الظلام والأنوار الزرقاء الشاحبة فى فوانيس السيارات المسرعة فى الشوارع حولنا ..

وضعت رأسى على صدر ديدى .. أتحسس نبضها الخافت وصوت من عذابى يصرخ :

— يارب . . أهى مشكلة بالنسبة لجلالك وقدرك أن تحفظ لى ديدى ؟!.. أنت تعرف أننى فى حاجه إليها .. فامنحها لى يارب .. أعطها عمرى كله .. دعها تعيش ..

فجأة شهقت ديدى .. وفتحت عينيها بضعف .. ونظرت حولها .. وتعلقت عيناها بعينى أمى وأبى .. رأتهما يبكيان فى حزن شديد . . وارتاحت نظراتها فجأة . . وابتسمت عيناها فى رضاء وفرح .. وغابت عن الوعى .. و ..

هتفت بها : أفيقى يا ديدى .. من أجلى .. من أجل ابننا خالد.. الولد المنتظر .. ستلدينه وسيحقق مافشلت أنا وأنت وأهلى فى تحقيقه .. أرجوك أفيقى ..

ثم خنقتنى الدموع ..

توقفت سيارة الأسعاف أخيرا ، فى مدخـــل مستشفى أم المصريين .. وحمل أبى وأمى ديدى وساعدانى على وضعها فوق « نقاله » و ..

لم ألحظ أن المستشفى غارق فى الظلام والأنوار الزرقاء الشاحبة .. ولم أر الزحام والارتباك الشديد من حوالى .. وجريت بجوار ديدى الممددة على « النقالة » والممرض يدفعها فى الأسانسير .. وهبطنا بها فى عنبر الجراحة فى الطابق الثانى .. صدمنى وجود عدد كبير من الجرحى والمصابين والأطباء والممرضات والممرضين وأنابيب الدم وأكياس الكلوكوز .. و ..

قلت فى رعب : ماذا حدث الليلة ؟.. لماذا يزيد عدد المصابين الآن بالذات لابدأن الأمر مدبر لينشغل كل الأطباء و كل المستشفى عن انقاذ ديدى .. أمعقول هذا ؟!..

ظلت النقالات تتحرك أمامى .. وكلها محملة بأشخاص مصابين وجرحى والدماء تلمع بغزارة مخيفة . .

همس أبى : نذهب إلى مستشفى آخر يا ولدى . .

صحت . . صرخت : وهذه ؟ . . أليست مستشفى ؟ . . أنتم يا سادة . . أيها الأطباء . . ألا تسمعون . . أن زوجتى تموت . . تموت . .

أمرنى طبيب بالصمت . . ابعدنى ممرض شاحب الوجه قالت الممرضة :

ألا ترى اننا مشغولين . . أمامنا عشرات . . حالتهم خطيرة ويجب انقاذ الجميع . .

قلت : وزوجتى ؟! . .

قالت : سنعمل لها اللازم . . فقط اصبر قليلا . .

قلت : اصبر ؟ . . انها مصابة بذبحة فى القلب . . فى القلب

صرخت الممرضة فى أسف وأسرعت تحاول اسعاف ديدى وهى تردد فى ذهول :

معذره . . فنحن فى حالة طوارىء . . حرب . . وجرحى وشهداء . . كان يجب أن تقول لنا أنها مصابة بذبحة . . كان يجب أن توضح . . الحرب فاجأتنا . .

قلت : أى حرب ؟ . .

قالت الممرضة : عبرنا فى الظهيرة والقتال متوحش فى سيناء

أدرت عينى فى المشهد الرهيب أمامى . . استطعت أن أفهم أخيرا . . ان المصابين والجرحى من الجنود والضباط . . وامتزج المشهد الحالى بمشهد قديم حدث فى ممر متلا . . وأصابنى الفزع . . فتشبثت أكثر بيد ديدى وقلت :

ـ أفيقى يا بنت .. انهضى .. فالوقت لا يسمح بذبحة أخرى فى القلب . . أفيقى يا ديدى . .

وقلت للمرضة . . : أتوسل إليك افعلى شيئا . . لقد أصيبت فى معركة شرسة ضدالتخلف والقهر والظلم كانت تدافع عن حبنا .. عن زواجنا . . لكن قلبها ذبح

أبعدتنى الممرضة . . وجاء طبيب . . واضح على وجهه الارهاق . . وبدأوا فى انقاذ ديدى . . دلكوا قلبها . . نقلوا إليها كميات من الدم . . استعملوا الصدمات الكهربائية . . لكن قلب حبيبتى رفض الاستجابة . . ولم يعد ينبض ! . .

. . وامتزجت أمطار أكتوبر ببحر من الدم الذى يسيل من جراح الجنود والضباط المصابين . . ويسيل أيضا من قلب حبيبتى ديدى . . و . . .

وقمت أنظر إلى وجه ديدى . . وحوله وجوه الجنود المصابين وحضنت يدها فى لهفة وشعورى بفقدها يزلزلنى . . وهمست لها :

ـ كان يجب أن تحتملى يا ديدى .. أيصح أن ترحلى الآن ؟! . إنناكنا سنفرح فرحة عمرنا لو أنك . . . . .

خنقتنى الدموع . . صارت كل دموع البشر لا تكفى لتخفف أحزانى . .

وفى انتظار انهاء اجراءات الرحيل الأخير . . حملت نفسى بصعوبة إلى شرفة عنبر الجراحة . . لفنى الليل الأزرق الشاحب . . وهزتنى أصوات الحرب و . . زلزلت الأرض والسماء بأزير الطائرات وانفجارات المدافع . .

وقفت تحت المطر الغزير . . وفى عينى عينيها . . وفى أذنى صوتها . . وكأنها تقول لى :

ــ كان حبنا حلوا .. وجميلا .. فمعذرة يا نن العين وحبة القلب .. كنت مضطرة للرحيل . . خذلنى قلبى . . ذبحته الصدمات المتوحشة ومرارات السنين . . وصار حبنا الفريد الجميل حبا لا يطاق . . تصور ؟ . . لكن ألا ترى أن حبنا كان يستحق فعلا أن أرحل الآن فى هذا المشهد المهيب المذهل . . وجبينى متوج بدماء جرحى الحرب من الضباط والجنود . . انهم حرس الشرف لى ولك . . وأنا فخورة جدا . . أباهى بهم ملائكة السماء . . امسح دموعك يا حبيبى الآن . . فالحزن أيضا لا يطاق ! . .

« تمت »

رقم الايداع / ٣٢١١ / ٨٢
الترقيم الدولى / ٧ — ٠٠٠ — ١٧٢ — ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون ٢٢٠٧٩